مرِيسة تام زين

ياسين سليمان

مرِيسة تام زين

{حكاية غير كاملة}

Willows house
for printing and publishing

هذا الكتاب

تسرّع الذاكرة المتلهّف للماضي، يجعلها تسقط في فخّ اللا وعي، فهو يدغدغها ويتذوّق لذّتها المسترسلة دوماً في شهوة الرّكض نحو ما كان. الوعي غامضٌ لا تنجح محاولات الذاكرة في إفاقته من خدره الممل، أو فكّ شيفرته قط. فهي صفحة بيضاء مشوّشة تسعى بجدٍّ إلى ترميز ذاتها بمزيدٍ من التعقيد. القلوب تضمّد جراحاتها بالنسيان.

لو تعاملت مع هذا الكتاب، مثل حانةٍ تدخلها للثرثرة، فأنصحك أنْ توفر ثمن شراؤه، فهذا يكفيك لجلبِ زجاجة بيرة تجعلك تثرثر مع طوب الأرض. فأنت بأخلاقك هذه، لن تفكّر في شراء الحليب لطفلٍ باكٍ.

مقدمة

هنـاك كثـيرون يعتقـدون أنّ كوكـب الأرض قـد أصيـب بالـدوار، فسـقط مـن أعـلى المجـرة، بوسـع أي شـخص أنْ يـردد أقـوالاً مشـابهة، ولكـن الحقيقـة شـيئاً آخـراً تمامـاً. أولاً ليـس هنـاك أي دليـل يشـير إلى أنّ كوكـب الأرض موجـودٌ أصـلاً، كل مـا هنـاك بعـض الخرافـات المتوارثـة، وقـرر البـشر أنْ يتعايشـوا معهـا.

«السودان في ذمة الواعي»

المرحوم صلاح تشطيبة

أسرِعْ بالحضور لتناوُلِ العشاء، وأحضِرْ معك صندوقَك وإبريقَك؛ فقد أرسَلَ كاهن ديونيسوس لطلبك. أسرِعْ! فأنت تعطِّل العشاء لبرهةٍ. كلُّ شيءٍ آخَر جاهزٌ؛ الأرائك والموائد والوسائد والأغطية والأكاليل والعطر وأطباق الحلوى، والعاهراتُ أيضًا حاضرات. والكعكات اللذيذة متوافرة، فمنها الكعكات المسطحة وكعكات السمسم وكعكات العسل، والراقصات حاضرات، وهن المُفضَّلات لدى هارموديوس، وهن جميلات أيضًا.

مسرحية «الأخارنيون» للكاتب المسرحي اليوناني أريستوفان.

* * *

لو أردتم الحقّ، فإنّ التذكر شرٌ لا يضاهيه سوءًا إلا النسيان.

لم يكن عليه إلا أنْ يتذكّر سؤاله لوالدته التي ضاقت به ذرعاً، فشرعت في تقريعه والحطّ منه. متى تنتهي هذه المعاناة يا أمي؟ الأمر عائدٌ إليك، يمكنك تناول السّم متى تشاء. تركته ومضت بعد أنْ أسبغت عليه لعنةً رحيمة.

كان وقتها على فراشه، مدّ يده فنبش بأصابعه المرتعشة رمل الحوش، تسلخت أظافره، ولكنه يا للحظ! عثر على الكوب المتسخ، وبالفعل كان ممتلئاً، طارده النعاس والصداع وهو يشمّ رائحة الليلة الماضية، فما سمع صوت والدته وهي تصيح: ما هذا يا ابن الحرام؟ وبهذه الطريقة تمكن السائل من الغوص في حنجرته، فردّ عليها: وددت أنْ أصحو، ولهذا السبب شربت كأس الغيبوبة!

بدافع اشباع الفضول فقط، بوسعنا الإفتراض أنه تجاوز الإشارة الحمراء، لهذا تخلّت والدته عن طيبتها الشهيرة وطردته للمرة الأخيرة بعد أنْ طفح كيلها. لم يحدث ذلك بسبب الازعاج والصياح والشجارات التي تحتدمُ أحياناً. وليس بسبب الطعام التي تضطر لطهوهِ من أجله هو وأصحابه في بعض المرات. ولكن كما سنعرف أنّ الصالون الذي كانوا يجتمعوا فيه، لا يخصّ أهل البيت وحدهم. أحياناً يحتاجه الجيران لمناسباتهم الخاصة، فلا يمكن أنْ يظلّ مشغولاً طوال الوقت بأولئك المدمنين السفلة، لهذا كانت لا تريده أنْ يتحول إلى ناد. هذا لو أردتم الحق طبعاً.

وقبل أنْ يمعن الليل في تثاؤبه، تعربد الصهباء نشوانةً، فتعمد الأجساد للخدَر. ومن الغريب توجيه التهمة للصهباء، فمعروفٌ أنها لا تغادر زجاجاتها، إلا حين تداعبها الأنامل وهي ترتعشُ شوقاً لمنتهى السُكر. وقبل أنْ يفترش الليل سواده، تبيضُّ وجوه الحانات بالثمالة، تغرورقُ الزجاجة بدمع نشوتها، فتصْلِي الحناجر المتلهفة. افرحوا يا سقاة الكأس من عهد الرشيد. تداووا منها بها، يا عبدة العظيم دينوسيوس ابن المبجّل زيوس. تداووا منها بها يا أحفاد سيلانوس العظيم، إذ لا يهم أبداً إنْ كنتم حمقى طائرون أعلى قمم الأولمب، أم غرقت مراكبكم هنا، أي تحت هذه الرمال التي يسيل ذهبها الأصفر بجلافة وقسوة. ترنّحوا كالوطن، وتساقطوا على أي خريطة والسلام. تحطموا أين شئتم، فخلاص الروح في خلاصها منكم.

هـل كان باخـوس فى علياءِ كؤوسـهِ المتلاحقـة كصهـدِ الأنفـاس سـينجو أيضـاً مـن لعناتهـم؟ ومـاذا إذا عمـدوا إلى همجيتهـم المعتـادة عندمـا تندلـع ثـورة الكاسـات المضـادة؟ فيبـدأ الحـراك النفـسى الجـاد لإسـقاط آليـات التـوازن. وتضيـع الخطـى وتطيـش النظـرات وتـزوغ الأبصـار والأفئـدة ومـا تعلمـون. وقتهـا سـيصبح الطابـور الخامـس للعقـل الباطـن أكـثر وضوحـاً فى جدلهـم، وأكـثر قـدرة عـلى اتخـاذ القـرارت الحاسـمة.

سـيتنحّى باخـوس المخلـوع. وتنتقـل السـلطة إلى التيـار المتشـدّد للعقـل الباطـن. صراعٌ وصراعٌ وصراع. يمتـد أحيانـاً فـلا يبقـى خمـور الأندرينـا، ومـن ثـم يخبـو فـلا يـترك أثـرا. لـن تسـتطيع أنْ تؤكـد أنهـم يتوهّمـون الغبطـة، فأنـت لم تخضـع ضحكاتهم لجهـاز اختبار الحـزن. ولـن تجـزم بشـقائهم، فابتسـاماتهم الباهتـة، يخالونهـا دائمـاً، ناصعـة البيـاض. مـن أنـت حتـى تقنـع ثمِـلاً بأنـه لم يعـد مـن شـعب الله المختـار، وأنـت لم تقـرب الخمـر لتقرّبـك مـن عليائـه زلفـى؟ تأكـد أنـه لـن يحـطّ قـدْره إلى هـذا المسـتوى.

السـكران ينظـر لكأسـه الأخـير كطـوق نجـاة، كفرصتـه الأخـيرة للعبـور مـن الغيـاب إلى كامـل الحضـور، مـن ازدراء الـروح لعناقهـا، مـن شيء إلى كل شيء، وبالتـالي هـو طريقـه إلى الكـمال. البعـض يصبحـون أكـثر قربـاً إلى الله، فيراودهـم الحنـين إلى عقيـدةٍ هـي أقـرب إلى الإنسـانية منهـا إلى حتميـة الارتبـاط بخالـقٍ، ملزمـون بطقـوس عبادتهـم. تجدهـم أشـدّ كرمـاً، تستشـفُّ أرواحهـم، فتغـدو دموعهـم قريبـة إزاء أيّ موقـف قـد لا يبـدو مثـيراً للبـكاء.

لـو أردت الحـق، عـلى المجتمـع أنْ يحـرص عـلى الاسـتماع لآراء السـكارى، عـلى الأقـل ليسـت لديهـم أمـراض الوعـي النفسـية.

يبتهـج المسـاء حـين تـدبّ الـرّوح في أعـماق تلـك الزجاجـات التـي لا تصـدأ روائحهـا مـن لعنـة الخندريـس. للجميـع أمنيـةٍ صعبـة التحقيـق. مـاذا يحـدث لـو كان الـكأس الأول يحقـن بالوريـد؟ فهـو يجعـل الأفـواه معوجّـة، يتلـوّى في شـؤمها ثعبـان الكلـمات. وللمفارقـة، تعقبـه بهجـةً متسرّعـة، وهـذه ورطـة. فتبـدأ النفـوس تفتـش عـن المشـاعر الرحيمـة، بـذا المحبـة، تذكـر الأصدقـاء، التعبير عـن حبهـم وسرد المواقـف المبهجـة. وكلـما زاد الاعجاب بهـا ازدادت الكذبـات. السـكير كائـنٌ متقلـب، وربمـا تكـون الخمـر هـي التـي تبـدّل آراءهـا كـما تبـدّل أسـماءها. تصـير جميـع الأصـوات جميلـة، فيـشرع الجميـع في الغنـاء. الأغنيـات نفسـها لا تسـلم مـن تقلبـات المـزاج، فتخلـع رصانتهـا بسرعـةٍ، وترتـدي عُهـراً لذيـذاً. يمـضى ربـع الزجاجـة، فتنهمـر الدمـوع تعبـيراً عـن حبٍ مـا، سـيغدو في صبيحة اليـوم التـالي مجـرد تفاهـة سـتخصى بمطرقـةِ الكيتُـوك. اصـح أيهـا السـافل قبـل أنْ تتـورّط، فأنـت مصـابٌ بإضطـراب العاطفـة الثنـائي لا أكـثر ولا أقـل. كـن متأكـداً أنّ كأسـات الشـجاعة كثـيراً مـا ورّطـت سـفلة كثـيرون غـيرك. ينتهـي الأمـر دائمـاً بالاسـتفراغ! هـل شـعرت بـأنْ جسـدك مسـترخ؟ هـل تعرّقـت كإسـفنج الحانـة؟ بالطبـع ثرثـرت وصـار صوتـك مرتفعـاً كصـار سـفينةٍ عملاقـة. ومـاذا حـدث بعـد أنْ واجهتـك صعوبـةً في الـكلام؟ أرجـو ألا تغـادر مكانـك إنْ لم تكـن مضطـراً، فلـن تذهـب إلا إلى الـوراء. وفي حـال أنـك تذكـرت مـا حـدث لـك في سـنة رابعـة، فهـو في الحقيقـة لا ينـسى، مـن الحكمـة ألا تبـادر إلى الشـجار، ثـق يـا دونكيشـوت، لـن تهـزم إلا

طواحين الهواء! بعد قليل ستضعف ذاكرتك، تتعب، تنعس ثم تشرع في الغثيان والاستفراغ. قم إلى فراشك واعترف أنك قد جلست! قم يا هذا فليس بينك وبيك كابتن مورغان ثأر. هل تعلم أنّ مقولة لم أسكر بعد هي خدعةٌ لن تنطلي على الساقي ولا حارس الحانة؟ فالصدق في هذه الحالة، أمرٌ ملزم مثل كأس الطريق!

توافدوا في الحضور. أول الواصلين كان قد تجاوز الثلاثين من عمره، ولن تستطيع أنْ تعرف أنه أعمى لأول وهلة، إذ لم ير في حياته إلا ما يستطيع الحجر أنْ يراه، ولكن السبب المباشر أنه كان أعمى خبيراً يعرف عدد خطواته من بيتهم إلى هذا المكان، وحتى لو طلبت منه أنْ يرافقك إلى الدكان مثلاً، بإمكانه أنْ يقول لك: ولماذا تجعلني أسير معك سبعمائة وأربع وعشرين خطوة؟ لو حسبتها فيما بعد، ستجدها صحيحة بدقةٍ فائقة. أسرف الأعمى في الإستحواز على نيل الكثير من التعويضات، فصارت حياته أسهل نسبياً مقارنة بأعمى عادي بإمكانك العثور عليه في أي شارع رفقة كلب وعصا. وضع الأعمى آلة العود بالقرب من الجدار وسأل بعد جلوسه مباشرةً: مضى وقت طويل لم يكن فيه العشاء لحماً. ضحك صاحب البيت. أنت تأكل الطيبات دائماً في هذا المكان، يا لك من جاحد. جلس وقال. يا رجل دعني من هذا الهراء، لن يحتاج المرء إلى عينين لكي يعرف أنك تعاني

سوء التغذية، ولكن إنْ شئت الصدق، وجدت نفسى مختف فقررت أنْ أزوركم. وهذا التعبير متناقض تماماً، ولكن التغاضي عن وجود الشخص واختفاؤه، لن يجعلنا نتغاضى عن حقيقة أنّ الأعمى لم يختف إلا يوماً واحداً. وهو ببساطةٍ اليوم الذي لم يجتمعوا فيه. سأل عن العرق مباشرة: اسقني من كأسات هوانا. وكما يجب أنْ نعلم، كانت لديه أساليبه الخاصة في الحديث، وأكثرها روعةً طُرُقه في طرح الأسئلة الساخرة. ولكنه قد يباغتك كما فعل بسؤاله لصانع الطعام: بمناسبة اللحم، ما هو شكل اللون الأحمر؟ أحتار الرجل كيف يجيبه، فتمتم وبعد ذلك ردّ عليه: اللون الأحمر؟ كلون الدم يا غبي. وكيف هو لون الدم؟ جعله يصمت، وبالتأكيد علم أنه قد أدخله في متاهةٍ مفخّخة. فماذا بوسعك أنْ تجيب على سؤال مثل هذا؟ ولكنه لم يقصد إلا ارباكه فحسب. وعندما نال مراده، ترجاه أنْ يلعب معه عشرة دومينو، وهي اللعبة التي يفضّلها. بل كان واضحاً في أهدافه، فنظراً لأنهم كانوا يعلمون تماماً أنه ابن ستين محظوظة، لذلك لم يتردّد في قوله: أريد أنْ أكسب بعض المال السائب. ولماذا تريد أنْ تجمع المال؟ سأله صاحب البيت. لأشتر عينان بلاستيكيتان. لماذا؟ أريد أنْ تراهما الطفلة الصغيرة بنت جيراننا، فقد ذكرت بالأمس أنّ عيناي قبيحتان. ولكنك لم تر شيئاً قبيحاً ولا جميلاً من قبل، لهذا يجب ألا تزعج نفسك برأيها. يسأل الأعمى: أحضرتوا الخمر؟

هل فقدت حاسة الشم أيضاً؟

كما فقدت حاسة الذوق والتذوق أيها السافل!

هل سنبدأ الشجار قبل أنْ نسكر؟

دعني منك، أريد أنْ أعرف هل عملتم حساب الزيادة؟

* * *

الخمر معجزة المسيح الأولى. كيف ذلك؟ فرغت الخمر في عرس قانا في الخليل، فأخبرته أمه بذلك، فطلب منهم المسيح أنْ يملأُوا الأجران ماءً، فملأُوها وقدّموها فإذ هي خمر. وهكذا أصبح أول من حوّل الماء خمراً.

بعد وصول الإثنان الآخران جلسوا يختَمِرون. وماذا بعد؟ ما الجديد في أنْ تقول أنّ الغواية هي مهنة إبليس؟ الغرابة كانت ستكون لو ذكرنا أنهم جلسوا يتناقشون في السياسة مثلاً. ولكنهم فعلوا الأمر الذي يجيدونه ببساطة. كان الأعمى يشعر بالضجر الشديد بعد أنْ قرروا عدم لعب الدومينو واستبداله بالورق. ونظراً إلى ما بدر منهم، فهو يشعر أنهم قصدوا أنْ يضجروه منهم حتى يفارقهم بغير رجعة. كان ماهراً في لعب الدومينو، إذ لا يحتاج إلا أنْ تسمي له مكعب الدومينو الذي لعبته حتى يتابع اللعب. كانت لديه ذاكرة قوية وقدرته على الحساب كومبيوترية. يتحسّس المكعبات، فيتعرف على القطع السبع التي وزعت له ويبدأ اللعب مباشرة. علاوة على ذلك،

فهـو محظـوظ جـداً. ولهـذا السـبب وحـده قـرروا أنْ لا يلعبـوا معـه الدومينـو نظـير المـال، طالمـا كانـت الأمـوال تذهـب إلى هـذا العربيـد المحظـوظ. فليذهـب جميـع المبصريـن إلى الجحيـم، يقـول هـذا، ولكـن حـين يسـمع عـن فظائـع العـالم، سـيحمد الله عـلى أنـه الرابـح الوحيـد.

بعـد قليـل نشـبت مشـاجرة معتـادة وارتفـع الصيـاح فسـمعت الشـتائم. لا لا لم أرم فتـاة الهـارت أبـداً، قـم بمراجعـة طبيـب عيـون يـا رجـل. يصيـح الشـاب الـذي كان يصنـع الطعـام لهـم دائمـاً. تريـد أنْ تسـتغفلني يـا رجـل هـل تخالنـي ذلـك الأعمـى؟ يزمجـر غاضبـاً، فيبتعـد عنـه صاحـب البيـت خشـية أنْ يقبـض عـلى عنقـه ويزهـق أنفاسـه. عفـواً لم أقصـد الإهانـة يـا صديقـي، ولكـن هـذا الـكاذب قـد رمـى بنـت الهـارت ويقـول أنـه مـا رمـى سـوى عـشرة الدينـاري. تبادلـوا اللعنـات والشـتائم، ولكـن الصـوت الأعـلى كان يصـدر مـن الارتطـام العنيـف لمكعّبـات الدومينـو بالطاولـة. لا تقـل أنّ هـذا المـكان منحـوسٌ، فعـلى الجانـب الآخـر مـن طاولـة اللعب، يجلـس مقامـرٌ يقهقـه مـن فـرط السـعادة. وبمثـل هـذه البسـاطة، عـادت الأمـوال لصاحـب البيـت عـلى غـير العـادة. فقـرّر أنْ يتكـرّم عليهـم بثمـن زجاجـة، عـلى أنْ يتشـاركوا جميعـاً في ثمـن وجبـة العشـاء. وهـي عـادةً مـا تكـون وجبـة تافهـة في معظـم الأوقـات. لأنهـم لا ينفقـوا مالهـم إلا في شراء الخمـر والتمبـاك والسـجائر.

جمعـوا المشـاركات، أخذهـا صانـع الطعـام الـذي تـبرّع بالمشـوار. هـذه ثلاثمائـة جنيـه، نشـتري عـرق بمئتـين، وعشـاء بمئـة. أحتـجّ الأعمـى: لم هـذا التبذيـر؟ كل همّكـم في بطونكـم يـا حثالة، فلنشـتر عشـاء بخمسـين جنيهـا، والباقـي للعـرق! لهـذا قـرروا أنْ يزيـدوا المبلـغ قليـلاً، وبهـذه الطريقـة عـاد صانـع الطعـام وهـو يحمـل عرقـاً بثلاثمائـة جنيـه عـلى أنْ يكـون العشـاء بخمسـين جنيـه. لأنّ الأولويـة معروفـة دائمـاً لثمـن الخمـر. هـذا الملعـون لا يضاهيـه في حـبّ الخمـر، إلا ذلـك الشـاعر الـذي رافـق أحـد أصدقـاءه إلى جلسـة شرب، فـما كان منـه إلا أنْ تنـاول زجاجـة خمـر كانـت أمامهـم، فشربهـا كلهـا دفعـة واحـدة، وبعـد ذلـك ألقـى عليهـم التحيـة. فصدمـوا مـن هـول مـا شـاهدوا، فقـال أحدهـم موجهـاً كلامـه إلى صديـق الشـاعر: أسـمع إنـت جايـب لينـا شـاعر جاهلي؟

طلـب صانـع الطعـام كأسـاً إضافيـاً. أرجـو أنْ لا تزعجنـي بطلباتـك الكثـيرة، يمكنـك أنْ تدخـن الحشـيش. وجـه إليـه صاحـب البيـت نظـرة ناريـة هاتفـاً: اللهـم باعـد بيننـا وبـين البنقـو كـما باعـدت بـين المـشرق والمغـرب. أتـراك نسـيت أننـي الشـخص الـذي أنقـذك مـن هـؤلاء المسـاطيل عبـدة الزهـرة الشريـرة؟ فـيردّ عليـه ممتعضـاً: أنـت تعـرف أننـي لم أتعلمـه إلا مجـبراً. حـدّق إليـه بعينـي صقـر، ليسـأله مبتسـماً: وكيـف ذلـك؟ أخـبرني. عـن طريـق التعليـم عـن بعـد! قهقـه بجنـون لأنّ الأمـر في حـدِّ ذاتـه نكتـة. لـك أنْ تصـدّق أو لا تصـدّق، ولكنـي تعلمـت تدخـين البنقـو عـن

طريـق المخالطـة، فهـو كـما تعـرف دخـانٌ شريـرٌ يتسـلّل إلى عقلـك قبـل رئتيـك. وبعـد ذلـك وجـدت نفـسي محلقـاً تحملنـي عاصفـة زرقـاء لعينـة. وبعـد ذلـك أتيـت وأخرجتـك منهـا، بـل وتحمّلـت جنونـك وأنـت تـكاد تقطّـع ملابسـك في فـترة العـزل المنـزلي الـذي فرضتـه عليـك. فهـا أنـت ذا يـا صديقـي، سـكّيرٌ محـترمٌ لا تمـتّ لهـؤلاء الكائنـات الدّخانيـة بـأدنى صِلـة. وإنـت شـئت الدقـة، فنحن نتبـادل الكراهيـة، وهـي كراهيـة حميـدة كـما تـرى. هـل تعلـم أنّ كل التلـوث الـذي تسـبب في ثقـب الأوزون الـذي يتحـدث عنـه العلـماء قـد صـار بسـبب هـذه الأنفـاس الملوثـة التـي يتبادلهـا المسـاطيل؟ يـا رجـل دعنـا منهـم لا تفسـد شـهيتي، ودعنـا نفكـر في أمـر العشـاء. مـا رأيـك يـا بـروف؟ الخمـر يحتكـرُ اللـذة، مـا عـداه فمحـض هرطقـة في المـخ. هـؤلاء النباتيّـون التافهـون حجّتهـم أنّ البنقـو لم يحـرّم في الديـن. أمـا نحـن فنميـز بهـا أصـل البـشر. نعـم فـلا تدعـي أنـك تعـرف المـرء قبـل أنْ تسـكر معـه. أضـاف الأعمـى: هـم يقبضـون الرّيـح في صدورهـم، يأكلـون الحلـوى مثـل الأطفـال، ويتطلّعـوا في وجوهنـا بتأفـفٍ واسـتعلاء، فليأخذهـم الشـيطان فنحـن لا نشـعر بوجودهـم أصـلاً. قـال الـبروف: تصـوّروا أنّ أحـد النباتيـين قـال لي إنّ أول مـن صنـع الخمـرة هـو إبليـس وصنعهـا لقابيـل وأولاده. كاد الضحـك أنْ يقتـل الأعمـى فعلّـق سـاخراً: قابيل وأولاده فقـط؟ ألم تكـن الدعـوة عامـة؟ واصـل الـبروف: قـال أنـه قـرأ في كتـاب الدمـيري حيـاة الحيـوان الكـبرى، حُـكي أنّ آدم لمـا غـرس الكرمـة، جـاء إبليـس فذبـح عليهـا طاووسـاً، فشربـت دمـه

فلما طلعت أوراقها، ذبح عليها قرداً فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه، فلهذا شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة، وذلك أنه أول ما يشربها وتدب في أعضائه، يزهو لونه ويحسن كما يحسن الطاووس فإذا جاءت مبادي السُكر لعب وصفق ورقص، كما يفعل القرد فإذا قوي سكره جاءت الصفة الأسدية، فيعبث ويعربد ويهذي بما لا فائدة فيه ثم يتقعص كما يتقعص الخنزير، ويطلب النوم وتنحل عراقوته. وكيف حفظت كل هذا الكلام؟

هل تحسبني أعملُ طاهٍ؟

لن اعتبرها إهانة يا صديقي، وبهذه المناسبة، اليوم سأطبخ لكم طبخة اسمها القطر قام، المساكين يعتبرونها سهلة كما تبدو لأول وهلة، أما في رأي الحريفون فهذه مسألة أخرى معقدة. قاطعه البروف: يا شيخنا انجز، كأنك ستحضّرها لنا في معملٍ كيميائي. هذا ما توقّعت سماعه، لأنك تأكل كيفما أتفق، ولا تستطيع التفريق بين لحم الدجاج والثيران، طالما كنت تستطيع بلعه. دعني أوضح لك أكثر، لو علمتك الطريقة التي أشوي بها اللحم، بنفس الكيفية والمقادير وكل شيء، هل سيكون الشواء بنفس الطعم؟ محالٌ يا بروف، اليدُ الطاعمة هي هبة إلهية تزوّد الطعام بنكهةٍ مميزة. لهذا يظنّ الشخص دائماً أنّ طعام والدته هو الأطيب. وقد تكون والدته خرقاء عندما تدخل مطبخها تظنّ أنّ هنالك دجاجة ظلت تنبش فيه

لسنوات، وأظنكم تعلموا أنّ اليد الطاعمة بالضرورة أنْ تكون نظيفة ومرتّبة. والآن دعوني أوضح لكم الكيفية المثلى لطبخة القطر قام كما جاءت في الكتاب.

صمتوا في حيرةٍ من فاته القطار الأخير!

* * *

راق لصاحب البيت غناء صديقه الأعمى المنتشي، فالخمر يجعل حتى أصوات الجحوش محتملة. وقد حدث قبل سنوات طويلة، حين أحضر أحد الحجاج جهاز تسجيل من رحلة الحج، فقام بتسجيل صوت الأذان من مسجد القرية الصغير، فلما سمع المؤذن صوته للمرة الأولى، كان في غاية الأمانة إذ قال: لا عجب أنّ أعداد المُصلّين في تناقص منذ أنْ حظيتُ بمنصب المؤذن، ولكن لا يهم طالما أنّني أقبض راتبي شهرياً. بدت النشوى على وجهه، فنهض واحتضنه. أخذ يرقص ويتسافه بسعادةٍ غامرة، بعدها رفع كفّه عالياً وصفع الأعمى على وجهه. لهذا أعتقد الجميع أنّ ما حدث أمامهم قبل ثوان، لم يحدث أبداً في الواقع. وبالمناسبة هذا ما تأكد تماماً حين سأله صانع الطعام وهو يحدّق إلى وجهه: لِم صفعته؟ صارت جلبة كبيرة، تبدّدت حيال ذلك عدة كؤوس من الزجاجة غير المسدودة. وبعد ذلك قام وسدّد إليه لكمة هائلة، فتكوّم على الأرض بلا حراك. وحين سال الدّم من شفته السفلى، بصقه وأخذ

يتلفّت في بلاهة ويبسط كفه أمامه كمرآة قاتمة، وانفجر في نوبة ضحك هستيريّ. ارتفعت وتيرة الضحك، ليقطعها الأعمى وهو يلحس الدّم بلسانه: «كُب لي كأس الضربة دي». ورغم أنهم كانوا سكارى، أخذوا يتساءلوا لفترة. هل ردّت له اللطمة بصره، أم أفقدته عقله؟ شعر صاحب البيت بإعياءٍ شديد، جراء تسمم معدته بالكحول بالتأكيد، فقال له البروف: قم واعمل إعادة ضبط المصنع. قام وتقيأ ما بجوفه، وعاد بعد أنْ فرغ من عزفه المنفرد المقرف ليواصل الشراب.

لهذا السبب الوجيه، شرعوا في الغناء من جديد. فلنكن صريحين: الأعمى عازفٌ جيدٌ للكثير من الآلات الوترية، ولكنّ كان إصراره على الغناء أمرٌ يخصّه وحده، فعندما تكون صاحب الكرة بإمكانك أنْ تكون قائد الفريق ومدربه. ومع ذلك غنوا معه، يتئاءب الإيقاع على كفوفهم اللاهثة، تتناوم الأغنيات وتصحو، تناوشها حناجرهم فتنزلق بلا انسجام. في الليلة السابقة قرروا أنْ تكون هي الجلسة الأخيرة في هذا المكان. أقسموا على نخب الكأس الأخير كما فعلوا مراراً، ضلّ نصفه الطريق إلى أفواههم وبالتالي لا يمكن اعتباره قسماً مغلّظاً لا ينبغي الحنث به. مضوا مبتلّين تغادر خطواتهم إلى وجهات لا يقصدونها، يحرصوا على الصمت، فتجلجل ضحكاتهم بكامل فجورها، فتطاردهم جميع الكلاب، وتقلق منام أهل الحي.

يترنّحوا فتهتزّ على حبالهم الصوتية أشعار عاطف خيري في

منفســتو الهمبتــة!

جاتا الدوشه

في طاقَة منام هلْواسا لاوذْ ود قُزَحْ

طربان وشايلا الهوْشَه

خطفت توبا

قالت آخ!

نِسَتْ باب حوشا فاتح

والمْطْور الليلة كيف ملْبُوشه

دِسِيهُو منك فيهو

أو سميهو في الخيل الصحاب

البِخُشُّوا الحضرة دون ما نوبة

من غير ما يدقوا الباب

البِدِسُّوا الفكرة

في ضحكة بنات نعش

البِنَادَن قمره

تغسل جمره

في رِيق السحاب

البِحَرْسُوا الخمرة في النخل البِصَحِّي التمرة

نص الليل إذا نقص الشراب

* * *

يخلع الليل جلباه، فيرتدي وجهاً مكرراً في النهار. دعونا نتجاوز وصفه بالرتابة.

إكتشاف الفرق بين الحلو والمرّ يتطلّب أنْ لا تتعطّل حاسة التذوّق.

وكأنك تنتظر جديداً حتى تسأم من الانتظار!

لهذا، يفقد الوقت ميزتاه الأساسيتان: السرعة والبطء.

لهذا، الانتظار يتخلى عن شرطه الأول: الترقّب.

لهذا، يرضى كل شيء، بأي شيء.

وحين أتى الليل لم يفاجأ حين وجد كل شيء في مكانه.

رنّ هاتف صانع الطعام بشكلٍ مُلِح، ومن الطرف الآخر هدر صوت البروف الغاضب، وقلّ ما كان يغضب: لماذا لا يردّ هذا البارد على إتصالاتي؟ فعرف أنه يقصد صاحب البيت، فناوله الهاتف. قال أنه لم يسمع رنين الهاتف، ولكن البروف تجاهل تبريراته قائلاً: معي بالخارج ضيفة تودّ أنْ تسهر معنا، تعال

لـكي نتناقـش في كيفيـة دخولهـا دون أنْ يراهـا أحـد مـن هـؤلاء القرويـين السـمجين. ولأنـه يسـكن في ذلـك الحـي الشـعبيّ، خـرج لـه صاحـب البيـت، وهـذه هـي المـرة الأولى التـي يقابـل فيهـا السـيّدة ذات العينـان المجنونتـان. سـيدة ذات قـدرٍ مـن الجـمال لدرجـة تجعـل حضورهـا مـع الـبروف أمـرٌ فكاهـيّ. فهـو مـا يـزال طويـلاً نحيـلاً ولا توجـد شـعرة بيضـاء في رأسـه. يحـشر جسـده الثعبـانيّ في أقمصتـه المزركشـة قديمـة الطـراز. ويجتهـد طـوال الليـل أنْ يتحـدث بغوغائيـة مصطنعـة حتـى يبـدو مثلهـم. ولكـن في المـرات التـي يثمـل فيهـا بشـدة، سـيعاني الجميـع وقتهـا مـن أسـتاذيّته المملـة. خـلاف ذلـك فهـو شـخصٌ مهـمٌ في مثـل هـذه الجلسـات، ووجـوده يمنـح هـذا التبايـن ألقـاً فريـداً. أفسـحوا لهـا مكانـاً بجانبـه، وتسـاقطت عـلى رؤسـهم أبابيـل مـن الأسـئلة.

لجـأ إلى أسـلوب إثبـات الأهميـة، وهـو تكتيـكٌ معـروفٌ للجميـع حـين تكـون هنـاك سـيدة وحيـدة وسـط مجموعـة مـن الرجـال. بدايـةً مـن توزيعـه لـلأدوار والمهـام، وحتـى إشـعارها بأنـه الرجـل الأهـم في تلـك الجلسـة.

أقـترح عليهـا أنْ تمـزج الـكأس الأول ببعـض المـاء كـما يفعـل. هـذا مـا يعتـبره الأعمـى مضيعـة للـذّة، لهـذا يناكفـه: حـين تمـزج العـرق بالمـاء أو الثلـج، هـل يؤثـر ذلـك عـلى صحـة الإنسـان؟ يومـئ الـبروف. ولـو أضفنـا المـاء إلى بعـض الأنـواع الممتـازة التـي نسـمع عنهـا؟ يهـزّ الـبروف رأسـه مؤمّنـاً. فيشـهر أصبعـه الأوسـط مقهقهـاً: ألم أقـل لكـم أنّ المـاء يـضرّ بصحـة الإنسـان؟ الـبروف كرجـلٍ صاحـب حكمـة، يـرى أنّ الطعـم الـلاذع الـذي يمنحـه الـكأس الأوّل، لا يعطـي أي انطبـاع عـن اللـذة التـي تكتشـفها الشـفاه بعـد

سريـان الخـدر في العـروق. حسـب الخمـر فخـراً أنهـا لا تهطـل مـن السـماء ولا تمنحهـا الأنهـار. لهـذا يحـسّ المـرء بعـد هدنـة تسـارع الكـؤوس، كأنـه كان يقـود سـيارة خارقـة عـبر الطريـق السريـع، وفجـأة انحـرف إلى طريـقٍ جانبـي، فتبـدو سرعتـه أبطـأ مـما هـي عليـه فعليـاً. لهـذا يجـب عليهـم التمهّـل حتـى لا تغـدر بهـم الخمـر. فـلا تجعـل عينـك هـي التـي تقـرّر، فأنـت لا تـشرب قطـرة عيـون. كانـت نصيحتـه الخالـدة: يـا جميـل يـا نـور الشـقائق امـلأ كأسـك وأصـبر دقائـق!

دائمـاً مـا تحـدث الشـجارات بينـه وبـين الأعمـى في مسـألة التمهّـل هـذه. بـالله عليـك هـو مجـرد عـرق لا أكـثر ولا أقـل. فيتهكّـم الـبروف سـاخراً: الفـرق بـين الثمالـة بالعـرق والشـيفاز، فقـط في وجبـة العشـاء التـي يتمتـع بهـا شـارب الشـيفاز. يضحـك صاحـب البيـت ويغمـز. وجِّـه هـذا الحديـث إلى ذلـك الرّجـل. يشـير إلى صانـع الطعـام الـذي أعجبـه الـزجّ بـه في الحديـث. فيسـتعرض معرفتـه ومهاراتـه. يـا أخـواني الحـدّ الفاصـل بـين الغيبوبـة والوعـي غـير مـرئي. وبذكـر الغيبوبـة يحتـجّ الأعمـى: أيـن هـذه الغيبوبـة، لقـد أنتصـف الليـل دون أنْ نبلغهـا، الرجـاء صبـوا لنـا كأس الغيبوبـة. يصفّـق الـبروف متعجّبـاً: يـا جماعـة الإنسـان تتغـيّر أقـداره إلى الأسـوأ أو الأفضـل بطـرقٍ غريبـة، مثـلاً: أنظـروا لهـذه القـارورة، قبـل سـاعات كانـت قـارورة ميـاه معدنيـة، ولكـن الآن صـار اسـمها زجاجـة خمـر. يقهقـه صانـع الطعـام: لـو اسـتطاع رؤيتهـا لشربهـا دفعـةً واحـدة.

لـو تركنـا أمـر الـشراب للأعمـى سـيدقّ لنـا دلُّوكـة الكسـمبر فهـو خائـنٌ بالفطـرة! يضحـك صانـع الطعـام فهـو يعلـم أمـر الحكايـة. ليـت الأمـر توقـف عـلى ذلـك، ولكنـه سيسـقي الـتراب معـه وهـو لا يحتـاج إلى الخمـر كي تنبـت عليـه شـجرة. يقاطعهـما الأعمـى: غـضّ النظـر عـن سـخريتكما الماسـخة، مـا هـي قصـة دلُّوكـة الكسـمبر؟ ينـبري صانـع الطعـام شـارحاً: تلـك القصـة حدثـت في إندايـة شـهيرة كانـت في قريـةٍ تدعـى الكسـمبر، كانـت الإندايـة عامـرة ويتواجـد فيهـا عـادةً، مجموعـة مـن المغنيـات والمغنيـين، يدقّـون إيقاعـات الدلُّوكـة منـذ الصبـاح الباكـر، وحتـى المسـاء حـين تأمـر الحكومـة بإنـزال الرايـات عنـد حلـول موعـد انتهـاء يـوم العمـل. فاشـتهرت هـذه الإندايـة بالدلُّوكـة والغنـاء، وكان مـن روادهـا بعـض النـاس الذيـن يحـضرون للغنـاء أو للظفـر بالنسـاء. أمـا السـكارى فكانـوا يفضلونهـا لأنهـم يسـكرون بسرعـة بفضـل الرقـص والغنـاء. ولكـن ربمـا ضرب بهـا المثـل، لأنّهـا كانـت تلـمُّ اللصـوص، فقـد كان العابريـن تجذبهـم الفـوضى، وبعـد ذلـك يكتشـفوا أنهـم اعرضـوا للسرقـة وهـم غافلـين، فصـارت مثـلاً. فلـو كنـت تشـكّ في شـخصٍ يريـد أنْ يغشّـك، تقـول لـه: مـا تـدق لي دلُّوكـة الكسـمبر!

ضحـك الأعمـى كعادتـه وبحـث عـن العـود لـكي يبعـد عنـه الحـرج المعرفي.

عندما بدأت أنامل البروف النحيلة في الإرتعاش بشكلٍ خاص، يعني هذا أنه يريد أنْ يأخذ فرصته في الحديث. لا يريد أن يقاطعه أحد، فمن حسن أدب النديم الإنصات. كان الأعمى يدوزن في أوتار عوده، وينظّف في حنجرته عسى ولعل أنْ تتنازل عن عنادها، فتطلق عنان التطريب الذي يحسّ به ولا يقدر على أدائه. دقيقة دقيقة يا فنان، ماذا تريد أنْ تقول يا بروف؟ صاح صانع الطعام وقد تبعثر من أنفه الدخان. قال البروف: من اللطائف التي قرأتها، كان أبو محجن الثقفيّ، حسبما يروى في كتب السيرة والتراث، يقول أنّ نهايته مرتبطة بالخمر، مثلكم تماماً، وقيل أنه قال قبل أنْ يجاهد في معركة القادسية قد قال:

إذا مِتُّ فادفني إلى جنب كرمةٍ تروى عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مِتُّ أنْ لا أذوقها

يبتسم الأعمى وقد كان محبّاً لمثل هذه الحكايات: ما أجمل منه إلا شعر أبو نواس حين قال:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ

فما العيش إلاّ سكرة بعد سكرة فإنْ طال هذا عنده قصُر

يواصـل الـبروف: حـين مـات الرجـل، الصبيـان كانـوا يأتـون لقـبره للـشرب تيمنـاً بقولـه المكتـوب عـلى قـبره:

اجعلوا إنْ متّ يوماً كفني ورق الكرم وقبري معصره

وادفنوني وادفنوا الراح معي واجعلوا الأقداح حول المقبرة

إنَّني أَرجو من الله غداً بعد شرب الراح حسن المغفره

انفجـروا ضحـكاً، فقـال الأعمـى: لـو مـتّ يـا بـروف لذهبنـا جميعـاً إلى قـبرك، ولـن ننـسى أنْ نسـكب كأسـك عـلى القـبر، إنهـا خسـارة فادحـة بـلا شـك، ولكـن لا تقلـق، سـنتحملها عـن طيـب خاطـر. قاطعـه الـبروف: وبهـذه المناسـبة، أدُّونـا كاس حسـن الخاتمـة. أيـوة يـا بـروف، تحـاشى الخيانـة يـا سـوّاق، فالخيانـة كـما نعلـم مـن خصـال شـاربي المـاء وعبـدة الزهـرة الشريـرة. هللـوا جميعهـم في انتظـار كأس حسـن الخاتمـة المجيـد.

تتعـالى صـوت ضحكاتهـم الفاجـرة. يظـنّ صاحـب البيـت أنّ المجـال قـد أتسـع لـه ليـسرد بعـض نكاتـه السـخيفة. فيطلـق ضحكـة مجلجلـة هـي بمثابـة صافـرة إنـذار لمـن يعرفـوا ثقـل دمّ نكاتـه. الأمـر الـسيء في ذلـك، هـو اضطـراره للتوقّـف لأكـثر مـن نصـف دقيقـة أحيانـاً لـكي يكمـل النكتـة، فـلا يتذكـر النـاس مـا كان يحـاول قولـه أصـلاً. فمشـكلة هـذه النـكات التـي يرويهـا،

أنـه لم يكتشـف أنهـا المأسـاة بعينهـا. ونظـراً لـبروده التأريخـي، تحـسّ أنـه حجـرٌ لم يعـرف قـدره نفسـه بعـد. بإطلاقـه لضحكتـه السـخيفة تلـك، قـال لـه صاحـب الطعـام محـذراً: إيـاك فلدينـا اليـوم ضيفـة. سـاورته الشـكوك في نوايـا صاحـب البيـت، فقـرر أنْ يردعـه عـلى سـبيل الإحتيـاط. كان ارتـداؤه للأقمصـة الصبيانيـة الضيقـة أمـرٌ يفـسّر النحافـة البالغـة التـي تميّـز صانـع الطعـام، وقد يكـون هـذا الأمـر غريبـاً بالنسـبة إلى شـخص هوايتـه الوحيـدة هي صناعـة الطعـام. وأرجـو ألا يفهـم هـذا أنـه فاقـدٌ للرغبـة في الأكل، أبـداً، فهـو يـأكل أكل السُّوسـة ولكـن العافيـة دائمـاً مدسُوسـة. أمـا تفسـيره الخـاص لهـذا النحـول، فقـد كان يـردّه إلى مشـاكل تغذيـة في فـترةٍ حرجـةٍ مـن حياتـه، فاسـتمر الأمـر عـلى هـذا النحـو. وهـذا مـا يفـسّر نهمـه إلى تنـاول الطعـام، مـن المسـتحيل أنْ يتوقـف عـن التفكـير في الطعـام، ولكـن ليـس هنـاك ثمـة وسـيلة لتغيـير هـذا الواقـع. توقّـف جسـمه عـن النمـو ربمـا سـبب لـه قلقـاً، إنْ لم نقـل رعبـاً، قبـل عـدة سـنوات، ولكنـه الآن توقـف كليـاً عـن إبـداء القلـق حيـال هـذه المشـكلة. كان يثمـل فيتخيـل أنّ لديـه عـدة أقـدام، وكلهـا عاجـزة عـن حملـه لـكي يتحـرك بالطريقـة الصحيحـة اللازمـة لـكي يمـشي الإنسـان.

* * *

عندمـا زارتهـم السـيدة ذات العينـان المجنونتـان في تلـك الأمسـية، أضفـت عـلى المـكانِ رهبـة شـديدة، ربمـا تكـون ممزوجـة ببعـض البهجـة الطفيفـة. وهـي سـيدة متوسـطة الطـول والحجـم بـل تميـل أكـثر إلى النحافـة. ملامحهـا مـن النـوع الهـادئ الـذي لا ينبـي

بـشيء مميـزٍ لأول وهلـة، فـلا تسـتطيع أنْ تكـوّن عنهـا أي فكـرة، الأمـر الـذي يجعلهـا لا تبـدو ميّالـة إلى الحديـث، أو تبعـث عـلى الملـل بشـكلٍ أوضـح. ولـولا أنّ عيناهـا مميزتـان، لأصبـح وجههـا، رغـم جمالـه، عـاديّ تقابلـه في اليـوم مئـات المـرات.

دعونـا نؤكـد أنهـم غـير معتـادون عـلى مسـامرة النسـاء في جلسـاتهم. كلّ مـا يجمعهـم في هـذا المـكان، الخمـر والثرثـرة وقتـل الوقـت في اجـترار كلّ مـا يصلـح ولا يصلـح للحديـث. السـيدة ذات العينـان المجنونتـان نفسـها، بـدت غـير مرتاحـة إليهـم، فأخـذت ترمـق الـبروف بنظـراتٍ لاهبـة، وكأنهـا تزمجـر في وجهـه قائلـة: قـم نذهـب أيهـا اللعـين، أي انحطـاط جلبتنـي إليـه؟ وفي الحقيقـة كان الانحطـاط يتمثـل في القـذارة التـي تحيـط بهـم مـن كل جانب، إذا تجاوزنـا بالطبـع قذارتهـم الشـخصية التـي لا يمكـن تغييرهـا بـأي حـال. الفـوضى، أعقـاب السـجائر، بقايـا التمبـاك، الكـؤوس المتسـخة، أكيـاس البلاسـتيك التـي تتطايـر كلـما تحرّكـت أريـاش مروحـة السـقف، الصحـف القديمـة، السرائـر التـي لا يسـتقرّ عليهـا الفـراش، القطـن المتناثـر تحتهـا، البـؤس المطـلّ في وجوههـم، رائحـة العـرق، النيكوتـين، الغبار العالـق في الفـراش، كلّ شيء تقريباً يفـضي إلى كئابـة حـادة. ودعونـا نتجـاوز وصـف الكؤوس المتسـخة، وفي الواقـع هـو كأس واحـد، يتناوبـون عليـه جميعـاً. يصـبّ لـك السـائق، وهـو لفـظٌ يشـير إلى الشـخص الـذي أوكلـوا لـه مهمـة توزيـع الخمـر، ولا يسـحب يـده إلى بعـد أنْ تعيـد لـه الـكأس فارغـاً، لأنّ هنالـك مـن ينتظـر دوره عـلى أحـرّ مـن الجمـر.

لماذا عيناها مجنونتان؟

عينها اليسرى بها محاولة طفيفة وفاشلة للحَوَل، جمالها في غير اكتمالها. أما عينها اليمنى، فقد بقيت على حالها منذ أنْ رأت النور لأول مرة، لولا أنها أتسعت كثيراً، ولكنها كانت تميل إلى البكاء، حتى وهي في أشدّ لحظات السعادة. ولسببٍ غامضٍ ربما أدركه لومون بوصفه: إذا رأيت في عيني المرأة نوراً، فاعلم إنّ في قلبها ناراً. بالتأكيد هناك سرّاً مطلسماً فيهما. وبالتأكيد يمكننا وصفهما بالمجنونتين.

دعونا نقول أنّها لم تخطط لذلك، نظراً لتلك البداية المحبطة عند تعارفهم رسمياً. تعرّفت عليهم منذ ثلاث كأسات! على الرغم من أنّ بعض السكارى المجددين يزعمون أنّ الكأس الأول يجبّ ما قبله. ولكن هنالك سكرجياً متشدّداً قال: لا يكفي أنْ تحتسي معي كأساً لكي أعتبرك صديقي! ما لم تحملني إلى البيت لو سقطت، أو تنظف قذارتي لو تقيّأت أو تبوّلت على ملابسي. بل إنّ بعض المتشدّدين أضافوا: على أنْ يبقى كل ذلك طي الكتمان! لذا لن تجد تفسيراً لهذه الإلفة الفجائية، لم تعلم أنّ تلك الكؤوس الثلاث كانت قادرة على تكسير جدار برلين ذاته! وبالتالي لن يصدق أحد أنها شرعت في سرد حكايتها، أو فلنقل الفضفضة إليهم كأنهم أصدقاء حميميون.

عندما أدمعت السماء لأول مرة، لم يكن الفيضان من ضمن مخططاتها.

النار دائماً تُنسبُ أسباب نشوبها إلى سلسلة تفاعلات كيميائية معقّدة، فتتضخّم الأمور بعد ذلك. وأما أعواد الثقاب فلا يجري ذكرها.

أشدّ الثرثارين إزعاجاً، هو في الواقع شخصٌ كتومٌ.

من مستصغر الشرر، اندلعت شهوة الحديث، فقالت السيّدة ذات العينان المجنونتان: إلى أنْ مات زوجي، كلانا لم يفهم، إلى متى تتخلى بويضاتي عن عنادها، فتصافح سائله المنهك، في ماراثون كلّ ليلة. انتبهنا بعد مرور عدة سنوات، أننا لم ننجب. صارت أوضاعه مستقرة، فهمس في أُذني ونحن نتناول العشاء في أحد مطاعم وسط المدينة. همس الأعمى بخبث: يبدو أنّ المحرّك لا يعمل جيداً. تجاوزته مواصلة: قال لي شكراً لكِ عزيزتي، لولا خطّتكِ الرائعة، لأنجبنا أطفالاً تعيسون. كنتُ مقررة ألا أُفسد العشاء الشاعريّ الذي لا يتكرر كل يوم، ومع ذلك قررتُ أنْ أسأله مباشرة: يبدو أنّ هنالك بعض اللبْس، ولكن هل قابلت طبيبك يا عزيزي؟ وعندها ارتسمت على وجهه بلاهة، فسألني: ولماذا أقابل الطبيب؟ شعرتُ بالإمتنان حين جاء النادل بالمزيد من السلطة، وقد رآني منهمكةً فيها، فصمتنا ولم يدر بيننا أي حوار. وفي عربة الأجرة كرّر سؤاله، فقلت: حسبتُ أنّ هنالك مشكلة ما، فأنا لم أجرّب موانع

الحمل قط. تطلّع في وجهي مصعوقاً، فأضفت: منذ كنت في الثانوية! هاا!؟ فُوجِئ وشعرتُ بساعده القوي وقد صار بارداً وهو يلتفّ على ظهري، ولا بدّ أنّ سائق عربة الأجرة الناعس قد ظنّ أنه يتطلع في وجهه، ولكنه كان يتطلع في الفراغ فحسب. فغرس أصابع يده الأخرى التي انشغلت عن المِقود في فروةِ رأسه حتى يطرد النعاس، فيما ظلت عيناه مسدّدتان نحونا على غرار سائقي التاكسي الأجانب.

سؤاله اليتيم طرحه عليّ صباحاً، بمقدرونا أنْ نغيّر التوقيت كما نشاء، ولكن تجاوزت الساعة حينذاك الثالثة عصراً: إذن يبدو أنّ هنالك مشكلة ما. لم أرد على ملاحظته الساذجة، فأضاف: أخبريني إذن كيف باستطاعتنا أنْ ننجز طفلنا؟ من عاداته أنّ كلّ أوصافه تكون عملية ومحددة بدقّة. غيره كان سيسأل هذا السؤال بطريقةٍ مغايرة، أي بمقدوره أنْ يقول ننجب بدلاً عن ننجز. ولكني فضّلت الصمت ساعتها. لاذت بالصمت لتلتقط أنفاسها، ثم قالت: طيب، بعد موته بثمانية عشر شهراً، قررت أنْ أحقّق أمنيته وأهديه طفله الأول.

نعم؟؟ تطايرت أعيرة الأسئلة بتركيزٍ عال، فطاشت في صدى صمتها المستفز. أسعدها هذا الأمر فسحبت نفساً طويلاً وصمتت. لم يدم صمتها أكثر من خمس ثوان، ومخطئٌ من يظنّ أنّ تلك الثواني الخمس قد تعتبر زمناً وجيزاً. أرجوكِ

كفّي عن حرق أعصابنا، هيا واصلي. ترجاها صاحب البيت بالإنابة عنهم جميعاً. لماذا كلّ هذه المبالغات، كيف تحبلين بعد موته بعامٍ ونصف؟ ولأنها تعشق الإثارة وهي ميزة لا يعرفونها، حافظت على هدوئها وابتسامتها الرائقة. مالت نحو البروف الجالس بجانبها، وهمست في أُذنه. بدا الحرج على وجهه، فهو يعرف أنها لن تقدر على قضاء حاجتها في ذلك المرحاض البلديّ المرفق. ولكن هذا لم يمنعه أنْ يقول لها: حين تخرجين أتجهي نحو اليمين فاليمين، هناك تجديه. خرجت. يا لها من باردة، أما كان عليها أنْ تكمل الحكاية أولاً؟

أثناء غيابها بدؤوا يتهامسون. لا بدّ أنّ هذه العاهرة التي أحضرها البروف قد أنجبت ابن حرام من أحدهم. فيؤمن آخر على صحة هذه المعلومة التي تبدو صحيحة. فيشعر البروف بالمزيد من الحرج، ويترجّاهم أنْ يكفوا عن هذا التهريج. بالتحديد عندما يرى كلّ العيون موجهةً إليه. فهو من أحضرها إليهم، وبالتالي ينبغي أنْ تكون لديه تفسيرات مقنعة لكل ما ذكرته السيّدة ذات العينان المجنونتان. ولكنه تجاهلهم والتزم الصمت، وأخذ ينتظر مثلهم. علّق صاحب البيت بشغبٍ ماكر: الضمير الميّل صاحي أم سكران!؟سمعه الأعمى ففهم ما يدور، فردّ عليه:

فيدني ساءلك عن أمور ميلة الخصر الضمُور

في اهتزاز طول العمر صاحي أم شارب خمور!؟

* * *

عادت فصمتوا كأنهم لم يتحدثوا من قبل، ولكن تمتمت الشفاه بالأسئلة الغامضة. فتحت حقيبتها وسلّت زجاجة عطر أنيقة وتعطّرت منها، ربما لكي تطرد عن أنفها رائحة المرحاض البلديّ القذر، فغمرت الرائحة الطيبة المكان لثوانٍ، ثم أبتلعتها الروائح المزعجة العالقة به منذ عهود. ابتسمت غامزة. هل غبتُ بما يكفي؟ سألت ساخرة. بما يكفي لماذا؟ سألها صانع الطعام. أطلقت ربع ضحكة وربما أقل وهي تتلاعب بجفنيها. بما يكفي لتغتابوني. ونظراً لأنهم مضطرون للكذب، أراحهم أنها تجاوزت هذه النقطة ببساطة لتكشف لهم السر. ولكنها أكتشفت في اللحظة الأخيرة أنها لم تتعرف عليهم إلا قبل ثلاث ساعات، ولا يصحّ أبداً أنْ تلقي بعصاتها أبداً. دعونا نتحدث في أمرٍ آخر، ربما أفسّر لكم ما حدث في فرصةٍ قادمة، بالطبع إنْ تقابلنا مجدداً. كانت العيون تتفرّس في كليهما، بنهمٍ وغيظ شديدان. البروف بالتأكيد لا يحتاج أنْ يقسم أنه لا يعرف معظم هذه الأسرار التي ذكرتها تلك السيّدة. ومع ذلك لم ينج من الشعور البالغ بالحرج. جلّ ما استطاع قوله: من هو السائق؟ أريد كأساً يا جماعة. وبقوله هذا، أخذ صانع الطعام يبحث عن الكوب، وعندما وجدها في راحة يده، أطلق ضحكة هائلة. وزع لهم الكأسات وذهب ليتفقّد قدر الطعام الذي كان يغلي على النار. وحتى لا يحدث لبْساً، يطلب أحدهم كأساً،

ولكـن يجـب ألا تفهـم أنـه ذاك الطقـس المتخيّـل المعـيّن. فقـد يكـون هـذا الـكأس هـو جرعـة فمويّـة مبـاشرة مـن قـارورة عـرق شـديدة الإتسـاخ كانـت أصـلاً مـن منتجـات شركـة كـوكا كـولا، ولكـن غطاؤهـا مـن شركـة ميرانـدا. الـكأس لغـةً واصطلاحـاً، هـو مقـدار مـا ينـزل في حلـق أحدهـم!

عـاد الهـدوء مجـدداً. وباسـتطاعة الجميـع الشـعور بالتغيـير الشـديد الـذي حـدث في تلـك الليلـة بحضـور السـيدة ذات العينـان المجنوتـان. وربمـا لهـذا السـبب سـمعوا صيـاح والـدة صاحـب البيـت الغاضبـة وهـي تتفقّدهـم. لأنّ هدوءهـم كان يشـير إلى نتيجـةٍ واحـدة: أنهـم ميّتـون تمامـاً. أجـاب عليهـا ابنهـا الـذي بتنـا نعرفـه باسـم صاحـب البيـت، وأخبرهـا بأنـه موجـودٌ في البيـت رفقـه أصحابـه، وعـاد ليسـأل مجـدداً: هـل كان يحبـك؟ أعنـي زوجـك. سـألها صاحـب البيـت غامـزاً، فتمعّنـت في وجوههـم لتكتشـف أنّ الجميـع منتبهـون، وبالتـالي ينتظـروا إجابتهـا عـلى أحـرّ مـن الجمـر. تشـجّعت أكـثر بفعـل الخمـر القويـة التـي أحتسـت منهـا عـدة جرعـات. اختبروهـا بالنّـار فاشـتعلت منهـا نـارٌ أرجوانيـةٌ مثـل التـي توجـد في جهنـم، لـو كان أحدكـم هنـاك. فـلا يـدري أحـد كـم تبلـغ نسـبة الكحـول فيهـا أبـداً.

قالت: كان يحبني أكثر عندما كان كافراً.

بالتأكيـد ليـس هنـاك داعٍ لنتوقـف قليـلاً حتـى نتحـدث عـن دهشـتهم حـين سـمعوا جملتهـا الأخـيرة المبهمـة. ولكـن لا بـدّ مـن

وجـود بعـض التفسـيرات لهـذا الغمـوض العجيـب الـذي أكتنفهـا. حصـل صانـع الطعـام لنفسـه عـلى كأس إضـافي دون أنْ ينتبـه أحـد، وهـذا مـا يعـدُّ خرقـاً بروتوكوليـاً عظيـماً في جلسـاتهم. ولكـن للأمانـة، شـدّته الحكايـة، فلـم يقصـد أنْ يرتكـب هـذه الخيانـة غـير اللائقـة. ولكـن الأعمـى المنتبـه سـمع كركـرة السـائل، فأرسـل احتجاجـاً غاضبـاً: يـا أيهـا السـائق، سـبحان مـن لا ينسـانا. وهـو زنديـق، حـين يندلـق الـكأس عـلى هندامـه، يقـول: اللهـم اسـقني مثلـما سـقيته. انتبـه صانـع الطعـام وشـعر بالحـرج، خصوصـاً مـع وجـود السـيدة ذات العينـان المجنونتـان بينهـم. وشرفكـم لم أقصـد خيانتكـم. صـاح الأعمـى بلـؤم: يقـال أنّ الـذي في يـده القلـم لا يكتـب نفسـه شـقيّاً. قهقـه بصـوتٍ عـال مضيفـاً: أطلـق سراح المسـجون يـا سـجّان، ولا تنـس، يمينـك ولـو كان عـدوك. يصيـح آخـر: دخلـت امـرأة النـار في هِـرّة، حبسـتها حتـى ماتـت! وتعالـت أصواتهـم تـردد: أصبـح الصبـحُ ولا السـجنُ ولا السـجّان بـاق. وانفجـرت عـدة ضحـكات فاجـرات وشـقيات جـداً. ولعـلّ طرقعـة الأكـواب تمشْـورت في الإيقـاعِ بعيـداً، صفّفـت معهـا أيـادٍ ناشـزات، ناغمتهـا أرواح، سـقاها الـرّاح فـراح واسـتراح، غازلتهـا أصـوات مبحوحـات كنـواح سـمبريّات حزينـات ينتظـرن المطـر، وربّمـا غنّـت.

إذا الكأسُ تحطّم وأنا لم أشرب

أفلا أتعب؟

إني أنضب

إذْ تغسل يدك الكأس فتضيع الرائحة تتسرّب

لا تغفل عن كأسك يا ولدي

لا أنت الساقي ولا المشرب

الأمـر نفسـه حـدث عـلى النحـو التـالي، ولكـن بشـكلٍ مثـيرٍ ومُغـالٍ في الغرابـة ينبغـي ألا يـصرف أنظارنـا عـن الأمـر الأهـم. فقـد اصطحبهـا زوجهـا في أمسـيةٍ سـعيدةٍ إلى مهبـطِ روحـه، إذ قـال يـا مليكتـي: سـأحبك اليـوم كـما ترقـص الملائكـة حـين تهبـط برسـالة نبـي لم يشـتهر بعـد، ولكـن في طريقـه ليتصـدّر نـشرة أنبـاء الرسـالات العظمـى. فتدلّـت روحهـا إلى مهبـطِ ركبتيهـا، أو أعـلى بقليـل. وهـذا الأمـر يعلمـه سـبحانه الأعـلى فقـط. إذ لم أكـن أمتلـك معلومـات كافيـة بشـأن المطـارات، ومهابـط الرسـالات، ولم أسـكنها أبـداً قبـل سرد تلـك الحكايـة.

ولعلهـما قـد انتبـذا مكانـاً شرقيـاً يفـضي إلى الفـردوس أو الـلا فـردوس، عـلى حـدٍّ وصفهـا في حيـاةٍ أخـرى. وقـال لهـا: لا لا لم يقـل شـيئاً! في الواقـع كانـت قبلـةٍ واحـدةٍ فقـط، نسـجت مـن خيوطهـا حريـر الكلـمات، ولعلهـا تخيّلتهـا ولم تحـدث قـط. عندمـا يرنـو الغيـم لصحـرتي شـفتيها الغارقتـان في الجفـاف، يشـكُّ أنّ غيمـةً، عفـواً، قبلـةً قـد سـكنت رمالهـا. فطـار إذ طـار عـلى ريـاشِ نبيـذٍ لم تبـض مـن سـكرته حمامـة. طـار. وكان كافـراً غنـى لهـا. وكان

مسيحاً صَلَب ثلاثة من أنفاسهِ في تلمودها. وكان الله. بنفسِ القدرِ من تطرّف أنثى، تظنُّ، في هنيهات ثمالتها، أنّ حبيبها هو والدها، أو عمها، أو خالها، أو، أو، أو الله. نعم. أو ربما نعم!

واصلت هامسة والآذان المرهفة تحثّها على الحديث بصوتٍ أعلى: لم يعد قلبه الفسيح يستطيع أنْ يعتمل مزيداً من الخفقان. إذ بدأت تنفد الروح من حجارة بطاريته. وهي لم تعد تذكر سوى قول ذلك الطبيب المحتال، وهو الذي قال لهما: بإمكاننا أنْ نجري لهذا الكهل المحتضر عملية نقل قلب. وصمت بعدها صمت من لا يخشى من القبر. قالت: خفق قلبي بشدّةٍ وسافر عقلي إلى بلادٍ مظلمة. عملاً بوصية الطبيب تمّ اجراء العملية وحدثت المعجزة. صدقاً أنه لم يكن يدري أنّ لديه مشكلتان. فقد ترافقا إلى المستشفى الخاص بأمراض العقم من أجل انجاز طفلهما. وهناك أكتشفوا ذلك العيب الخلقيّ الذي يمكن أنْ يمحي اسمه تماماً من سجلاتِ الحياة الدنيا في غضون بضعة شهور لولا أنْ حالفه الحظ، بوجود ذلك الواهب التعيس في الوقت المناسب.

تعافى زوجها ولم يعد قلبه «يوِحْ أو ينِح». وابتهاجاً بتلك المناسبة النادرة، زرع في قلبها مفاجأة. سأصطحبك إلى مشوار عظيم. قالها الزوج فرحاناً مبتهجاً. «قرقرت» روح الكافر الذي صار قديساً من فرط الغبطة. وبتسلسلٍ عجيبٍ للأحداث، سافرا معاً في رحلةٍ طويلة. وهي بين تخوم سوريا وصحاري

العـراق، ونواحـي كردسـتان، وشـبه جزيـرة سـيناء، في أماكـن يذكـر فيهـا اسـم الله كثـيراً، ولا يقـرن القـول بالفعـل. وجـدت نفسـها مجاهـدة في سـبيل الله، دون أنْ تخطـط لهـذا الأمـر. ولهـذا أتى طفلها إلى الحيـاة وهـو يحمـل صفـة المجاهـد الصغـير كـما تمنـى والـده أنْ يكـون. هـذه القصـة أعلـم تمامـاً أنّ الكثيريـن لا يريـدون سـماعها نهائيـاً، لهـذا سـنتجاوزها بـكل بسـاطة.

لم تكتشـف السـيدة ذات العينـان المجنونتـان أنّ الطبيـب الجميـل قـام بزراعـة قلـب، في صـدر زوجهـا، كان يعـود لمقاتـل داعـشي، قـضى نحبـه في المشـفى إثـر محاولـة فاشـلة لتفجـير عبـوة ناسـفة! هـذه المعلومـة عـلى الرغـم مـن ارتباطهـا الوثيـق بماضيهـا وكل مسـتقبلها، لم تكـن تعرفهـا. كل مـا يهمهـا أنّ زوجهـا كان يحبهـا فقـط عندمـا كان كافـراً!

تجرّعـت كأسـها الأخـير قائلـة: لا حـول ولا قـوة إلا بـالله، اسـتغفرك يـا مالـك روحـي. ردّدوا وراءهـا: ونعـم بـالله! كانـت تلك الابتسـامة سـتجبر إمبراطـور عـلى الرّكـوع، كـما سيسـجد في حضرتهـا أيّ شـاعر أو صعلوك.

* * *

لقـي أبـو حنيفـة سـكراناً، فقـال لـه السـكران: يـا أبـا حنيفـة يـا ابـن الزانيـة، إني شربـت النبيـذ. فقـال أبـو حنيفـة: مـا أحسـنت حـين أحللـت النبيـذ حتـى شربـه مثلـك.

كان صاحب البيت يقيم في الصالون بشكلٍ دائم، وكانت فترات زياراته المتقطعة للجزء الآخر من منزلهم، تتمُّ غالباً للتزوّد بالطعام، تغيير الملابس، واستجداء بعض المساعدات المالية العاجلة، والتي انقطعت تماماً في الفترة الأخيرة بعد انهيار علاقته مع والدته تماماً. حين أشرقت الشمس في ذلك اليوم، كانت كلّ العصافير قد قضت حاجاتها على جسده المدد بلا حراك، وبالتالي ليس بمقدوره سماع صياح والدته وهي تنادي بغضب: قم يا ابني الله يهديك، قم أيها الفاشل. ولكنه لم يفعل أبداً. لو كانت حاسة الشم لديك فعّالة، باستطاعتك كذلك أنْ تميّز رائحة بول كلب تصدر من سروال الجينز الذي كان يرتديه وقتها. ولكن محال أنْ تسمع صوت دقات قلبه، أو نقرات المسمار الصديء الذي كان يرقص رقصة الشاكوش على جمجمته، فيصحو بعدها وهو لا يستطيع أنْ يفتح عينياه من حدّة الصداع. ينام الرجل بالقرب من حائط الحوش، وهو بذلك يخطّط لنومةٍ طويلة تمتدّ لبداية النهار، لأنه بذلك التخطيط يضمن ألا تتسلّل إلى سريره أشعة الشمس الحارقة. في هذه المساحة لا توجد إلا غرفة مستطيلة ضخمة، وهي تمثل صالون الأسرة، حيث تقام جميع المناسبات العائلية ومناسبات الجيران الذين ليس لديهم مساحات كبيرة في بيوتهم تتسع لضيوفهم. ذلك الصالون الفسيح لا توجد فيه إلا ستة أسرّة متهالكة، بعض الكراسي القديمة، ومنضدة كبيرة في المنتصف، يستغلها صاحب البيت ورفقته للعب الكوتشينة على شرط أنْ يلعبوها بمقابل مادّي لأسبابٍ وجيهة جداً. ولكن لا توجد في

السقف إلا مروحة واحدة، وهي إما معطّلة، أو متوقفة نسبةً لانقطاع التيار الكهربائيّ خلال فترات طويلة في اليوم.

* * *

باغتت صاحب البيت سكْرة فكرة. تجنّبها كثيراً وهو يهرش فروة رأسه، وعلى الرغم من ذلك، فهو لا يستطيع أنْ يجيب على سؤالٍ واحدٍ دون أنْ يهرش فروة رأسه. في غمرة يأسه ماذا لو فكّر في الانتحار؟ بوسعه انهاء حياته بوسائل مختلفة. يمكنه الهروب من لوم والدته، أسرته، جيرانه، ومن جميع الناس الذين يعرفونه في مجتمعه الصغير المجاور. بوسعه التخلص من هذا العبء الثقيل دفعةً واحدة.

غادر سريره، تمهّل في طريقه إلى المرحاض القذر، وهذا أكثر ما كان يمقته. يحتاج جسده الضخم إلى كثير من الجهد لكي يحافظ على توازنه وهو يجلس على المقعد الأسمنتي الصغير، نسميه مقعداً ولكنهما عبارة عن طوبتان مستطيلتان مبلّطتان بالأسمنت يجلس عليهما المرء لقضاء حاجته. وليت الأمر ينتهي على ذلك، ولكن عليه أنْ يناور عدّة مرات حتى تأخذ القذارة طريقها نحو الحفرة الضيقة وتهوِي مسرعة حتى يسمع صوت ارتطامها الرّخو المقرف. وفي ذلك المكان الدنِس دائماً ما تداعبه أحلامه الفاتنة. يجلس لأوقات طويلة ولا يحفل بالرائحة الكريهة التي تتسلل إلى منخريه. يساوي هذا

البيت بالأرض، ينظر إلى حيطان الجالوص القديمة وهي تتهاوى كالجبن المتعفن، يبني حوضاً للسباحة في الفناء، تتعرّى أحلامه وتسرف في عهرها اللذيذ، فيملأ حوضه بالعاهرات الطيبات الغارقات في الرذاذ. ولأنه كان حريصاً على أنْ يجعل هذه الأحلام فاتنة، يبني مرأباً فسيحاً، يصفُّ فيه أحلامه الفارهة. وبينما هو كذلك، يسمع نحنحة غاضبة في الخارج، يتخيّلها سيارته البوغاتي التي تبلغ سرعة مائة كيلو في بضعة ثوان، ولكن يقذفه أحدهم بحصاة ترتطم برأسه، يحثّه لكي يخرج من المرحاض، فينهض لاعناً دون أنْ يغتسل، وبهذه الطريقة البسيطة، تنزلق كل أحلامه نحو فتحة المرحاض.

يبسط النهار كفّه، فإذا بها ممدودةً تتسوّل معظم ساعات اليوم، فليس هنالك حلولٌ وسطى، إما نهار ساخن يقلبُ ظهر المِجَن لجسده، أو ليل كئيب آخر. في الجانب الآخر من المنزل، وهو لم يكن مرئياً نظراً لتطاول شجرات النِّيم الطويلات، تجلس والدته تصنع كِسرة الخبز، تشوي النار وجهها، وعلى مقربة كما هو معتاد، تغلي على النار قدراً كبيرةً، هي كلّ ما استطاعت اعداده من أجل وجبة الفطور. شجرات النيم ليست هناك جدوى من وجودهن، فهنّ يمتصن الماء، يتطاولن إلى السماء، وليس لديهن أدنى فكرة عن معنى الظل أو الثمار. ما زالت أعراض الخمر الانسحابيّة تناوشه، فهو يفتقد الشهيّة،

كـما أنّ وجهـه لا يمكـن لأحـد في العـالم أنْ يحـب رؤيتـه، لـولا أنّ القـرد في عـين أمـه غـزال. يحـاول اسـتعطافها ببعـض الترهـات السـاذجة، يعـرض عليهـا المسـاعدة في بعـض الأعـمال المنزليـة اليسـيرة، فترفـض بالطبـع، فهـو كالدّيـك في منشـفة الأواني، لـو تركتـه سـيكسرها ولـو طرتـه سـيكسرها. ولكنـه لا يسـتطيع أنْ يعـرض عليهـا تبرّعـه بالذهـاب إلى الـدكان ليحـضر لهـا احتياجاتهـا. فقـد تعلمـت مـن التجـارب السـابقة، أنّهـا لـو طلبـت منـه شراء رطـلاً مـن اللحـم، سـيعود حامـلاً بعـض الطماطـم، ليوفّـر باقـي المبلـغ لمـا هـو أهـم مـن أكل اللحـم.

تنـاول إفطـاره وشرب الشـاي، وغـادر وهـو يلعـن ظروفـه السـيئة. بوسـعه الـصراخ محتجـاً: العـالم ليـس محتـاج إلى نيْكَنَـة فارغـة، فقـد تـمّ ذلـك منـذ آلاف السـنين، ونحـن كلنـا نتيجـةً لهـذه النيْكنة الشّرعيـة، التـي تمـت مـن قبـل ومـن دُبـر كـما نعلـم.

بوسع الصمت أنْ يردّ على تساؤلاته أيضاً.

* * *

في ذلـك المسـاء دفعـت السـيّدة ذات العينـان المجنونتـان بـاب الصيدليـة المجـاورة داخلـة، وكان مسـاعد الصيـدليّ يقـف وحيـداً يتسـلّى بهاتفـه المحمـول مـن شـدّة الملـل. دخلـت دون أنْ تلقـي التحيـة عليـه، فأخـذ ينتظرهـا لـكي تخـبره بمـا تريـد، ولسـنا مضطريـن أنْ نقـول أنهـا لم تكـن محتاجـة إلى إعطائـه وصفـة طبية

لـكي تأخـذ مـا تشـاء، الوصفـة الوحيـدة التـي تحتـاج إلى ابرازهـا، هـي الأمـوال التـي تحملهـا. ولكـن عندمـا طالـت حيرتهـا، وبـدت مـتردّدة، فحـدس أنهـا خجـلى حسـب خبرتـه. تـبرّع الصيدليّ الشـاب لمسـاعدتها وهـو يغمـز. وفي الحقيقـة كانـت محتاجـةً فقـط لمرطّب شـفاه. لـوت بوذهـا حـين أخـرج لهـا صندوقـاً للفـوَط النسـائية، فمـدّ لهـا صنـدوق الواقـي الذكـري وهـو يـدسّ عينيـه في عينيهـا مبـاشرة. فحملقـت في وجهـه دون أنْ تبـدي دهشـةً ملائمـة لمـا فكـر فيـه، أو بالأحـرى نظـرة غضـب تـوازي سـوء ظنـه. الدهشـة كانـت مـن نصيبـه فقـط، لأنهـا بعـد أنْ تذكـرت أنهـا مـا أتـت إلا لـشراء مرطّبـاً للشـفاه، طلبتـه منـه وأخـذت أيضـاً صنـدوق الواقـي، ودفعـت الحسـاب مبـاشرة وخرجـت.

أخـذ الأعمـى المـرِح يتغـزّل في جسـد السـيدة ذات العينـان المجنونتـان! لـو أحسـنت الظّـن، سـتعتقد أنّ صوتهـا قـد أعجبـه، فتوقّـع أنّ الله لم يخلـق هـذا الصـوت سـدى. ولكـن مـا يثـير العجب أنـه أكّـد لهـم بقولـه: مؤخرتهـا هائلـة! تسـلّلت نظـرات الدهشـة مـن عيـون الجميـع الحائريـن. فبـادر صاحـب البيـت بالسـؤال: وكيـف عرفـت ذلـك أيهـا المحتـال؟ ضحـك الأعمـى بخبثـه المعتـاد وأكّـد عـلى صحـة روايتـه بـأنْ قـال: لقـد تحسّسـت كفّهـا وجـزءٌ مـن سـاعدها، فعرفـت حجـم مؤخرتهـا، لا بـدّ أنّ صدرهـا صغـيرٌ كذلـك. بـدت نظـرة بلهـاء في وجهـه، ولم ينطـق أحـد إلا الـبروف الـذي قـال لـه: قلـة أدبـك هـذي شـديدة الوقاحـة، ولكـن هـذا لا

يجعلنا نعترف أنها موهبتك الوحيدة. الأمر المؤكد أنّ الأعمى لا ينطق بمثل هذه التفاهات إلا بعد أنْ يثمل بشكلٍ جيد. وحينها يبدأ في تفاهاته ويصرّ على الغناء، وهنا تحدث الكارثة.

بعد الكأس الرابع وحين تتمشّى في الأوصال لذّة الخدر، تأتي أطروحات أكثر جرئةً وأكثر وعياً بعالمٍ مجنون بلا قيود. ما يعرفه البعض أنّ الخمر لا تغيّب عقولَ الناس، ولكن كلّ ما تفعلهُ هو نزع الغلاف السميك عن أفكارهم ومعتقداتهم الزائفة. وهو أمرٌ لا يتعدّى أنْ يكون فضيحة أو إعلانٌ جانبيٌّ لمجموعة من الشعارات والمبادئ التي لايؤمن بها أحد منهم. فتجعلك تحمل سيف الكلمات والآراء التي لم تبح بها يوماً ما. الذي يحدث في الواقع هو تداخلٌ منطقيٌّ لعدّة أزمان في زمن واحد، وإبدالٌ لحقائق باردة، بأخرى محمومة، استئصالُ الواقع الرديئ من أجل الوصول لملاذات لا واعية آمنة.

أنْ تشوى ثلوج الرتابة على جمرٍ ما.

لا نعلم متى يشتعل.

هذه هي متعة الحكي. الونَس السلس الذي لا تملّ لذته.

بدأ صانع الطعام في توزيع الشراب للجماعة، حين جاء دور الأعمى أحتجّ لاعناً: أيها الظالم لماذا تصبّ لي كأساً أقلّ من الجميع؟ تلفّت صانع الطعام في حيرة، وأخذ يقسم أنه لم يفعل. ولكن الأعمى الشقي يعترض على كلامه: لقد سمعت صوت خرير الكأس، وهو ليس الصوت نفسه حين جاء دوري. وكيف ذلك أيها الشكّاك؟ يجيب: لقد كان خريراً طويلاً مبهجاً، الأمر

الـذي يؤكّـد أنـك ملئـت لـه كأسـه تمامـاً! ألا تعلـم أنّ مـن غشـنا ليـس منـا يـا رجـل؟ سـمعت الصـوت هكـذا: شرررر، وحـين جـاء دوري كانـت «شر» قصـيرة فقـط. أطلـق صانـع الطعـام ضحكـة هائلـة: والله ليـس هنـاك شرٌّ غـيرك.

بعـد جلوسـها مبـاشرة قالـت: سـتكون هـذه المـرة الأخـيرة التـي أزوركـم فيهـا. وحتـى لا تتركهـم يتسـاءلوا عـن الأمـر الـذي جعلهـا تتخـذ هـذا القـرار المفاجـئ، أضافـت: لا تقلقـوا بهـذا الشـأن يـا جماعـة، وصدقـاً، لم يضايقنـي أحـدٌ هنـا، ولكـن في الواقـع لـديّ ظـروفٌ خاصـة تمنعنـي مـن معـاودة الحضور. مـن أراد أنْ يناقشـها في قرارهـا، أسـكتته المفاجـأة السـعيدة التـي أحضرتهـا لهـم. ففـي تلـك الليلـة جلبـت معهـا زجاجـة خمـر مسـتوردة لم يروهـا مـن قبـل. وعندمـا أقـول ذلـك أعنـي أنهـم شـاهدوها صورهـا فقـط، نسـتثني الأعمـى مـن ذلـك. ولكنـه أخـذ يسـأل بـضراوةٍ عـن طعمـه ولونـه. فطلبـوا صمتـه حتـى يحتفلـوا بالزجاجـة، ولتكتمـل هـذه الطقـوس، أخرجـت السـيدة نصـف درزينـة مـن الكـؤوس الزجاجيـة النظيفـة، فليـس مـن اللائـق أنْ يسـمع السـيد جـون ووكـر بـأنّ السـائل الـذي أخترعـه قـد سـال في كبايـة الشـاي المتسـخة التـي تتناقـل بـين أيديهـم كمومـسٍ تافهـة. مـع أنهـم يتفقـون عـلى معلومـةٍ واحـدة: يشـترط ألا تكـون الخمـر حرامـاً فقـط، ولكـن أنْ تكـون مُسـكرة. بـل أنهـم لـن يتوانـوا عـن الدفـاع عـن رأيهـم الثابـت في العـرق: تمـرةٌ طيبـة ومـاءٌ طهـور!

تناقلـوا الزجاجـة مـا بينهـم، وكانـوا يتحسّسـونها وكأنهـا امـرأة فاتنـة.

احتضنها الأعمى وأطلقت روحه نشيجاً غارقاً في التأملات.

حين بدأت السيدة ذات العينان المجنونتان في توزيع كؤسها المذهّبة النظيفة عليهم، كان عليها أنْ تواجه مشكلة يسيرة وشائكة في نفس الوقت. فهذه الكؤوس حتماً ستحلّ إشكالاً كبيراً يتمثّل في التخلّص من معضلة انتظار الأدوار. هذا أمرٌ جيدٌ في كل الأحوال، ولكنها لم تعلم أنها ستصنع مشكلة أخرى ربما تكون غير مفهومة لديها أبداً. فقد كانوا يتشاجرون باستمرار في تحديد من له الأحقية في الكأس الأول، وهذا الأمر حدث كثيراً. عندما اختلفوا في المرة الأولى، أقترح عليهم صانع الطعام أنْ يمنحوا الكأس الأول للبروف تقديراً لفارق العمر بينهم. ولكن الأعمى احتجّ بشدة، وبرّر موقفه قائلاً: لسنا في مقهى يا سادة، الخمر يلغي جميع الفوارق العمرية، لهذا أنا لا أوافق. الغريب أنّ هذا الخلاف كان يبدو غبياً، فلن يضير المرء لو انتظر لثوان أو دقيقة ريثما يحين دوره. ولكن الخلاف تأجج بصورةٍ عبثيةٍ غير مفهومة، لأنّ الأعمى سألهم سؤالاً غادراً، لو كان بوسعنا وصفه بذلك: هذه الكأسات غير مضبوطةٌ بدقّة، وهذا ما يجعلني أخشى أنْ يضيع حقي، فأنا لا أعرف من سيكون صاحب الكأس الأخير! غمغم صانع الطعام وقال: وما المشكلة في معرفة صاحب الكأس الأخير لو تغاضينا عن صاحب الكأس الأول؟ أجاب: مشكلةٌ كبيرةٌ يا أصدقائي، ربما ينال المحظوظ حصّةً زائدة، هل تعرفوا مقدار ما تحويه القارورة، ونحن كلّ يوم نشتري الخمر في قارورة مختلفة

الحجـم؟ وبسـؤاله الماكـر، قـرروا أنْ يتّبعـوا اقـتراح الأعمـى، أي أنْ يلجـأوا إلى القرعـة، وبهـذه الطريقـة يتمكنـوا مـن تحديـد صاحـب الـكأس الأول والأخـير، عـلى أنْ يبـدأوا دائمـاً بيمـين صاحـب الـكأس الأول. ولكــن الأعمــى صــاح مجــدداً: يــا جماعــة فلنتفــق، مــن يندلـق كأسـه، فـلا يعـوّض، لأنّ جـزاء الإهـمال هـو الحرمـان!

لهـذا شـعروا بربكـةٍ شـديدةٍ حـين شـاهدوا كـؤوس السـيدة ذات العينـان المجنونتـان المذهّبـة. فهـي سـتقضي عـلى طقـسٍ شـديد الأهميـة درجـوا عليـه لفـترةٍ طويلـة. لهـذا السـبب صـاح صانـع الطعـام: يـا جماعـة اقـترح أنْ نعـود إلى نظامنـا الأسـاسي الـذي تعوّدنـا عليـه. لم ينتظـر ردّاً وبـدأ مبـاشرةً في جمـع الكـؤوس المذهّبـة التـي أتسـخت في أياديهـم، وسـط تعجّـب السـيدة ذات العينـان المجنونتـان. وحـين سـألت مسـتغربة، شرح لهـا الأعمـى: الخمـر مـزاجٌ يـا سـيدتي وليـس إزعـاج. لـذا قـرروا أنْ يتركـوا لهـا كأسـها، عـلى أنْ يعـودوا للنظـام القديـم بعـد اللجـوء إلى القرعـة العادلـة.

أعـذروني أيهـا السـادة، وأرجـو ألا تسـيؤوا فهمـي، فمسـألة الاهتمام بنـوع الـكأس الـذي تـشرب بـه، مهمـة جـداً لمعظـم النـاس، لا أدري بشـأنكم، ولكـن لـديّ قصـة طريفـة، فعندمـا شربـت لأول مـرة مـع زوجـي الثـاني في بيتنـا، كان قـد أحـضر قنينتـي نبيـذ مـن النوعـين الأحمـر والأبيـض. ومـن أجـل العشـاء كنـت قـد قمـت

بإعداد صينية سمك بالبطاطس، مع بعض السلطات والمقبّلات. فأخبرني أنّ النبيذ الأبيض يشرب مع السمك، والأحمر يصلح لشرائح اللحم والمشويات عموماً. هذه ليست القصة، ولكني ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت كوبان، أحدهما جاء هدية مع عبوة شاي، والثاني كان من طقم القهوة. صببتُ لي وله وجلست. انتبه زوجي وأخذ يحدّق إليّ بدهشةٍ بالغة، وبان في وجهه الغضب. هل صببتِ النبيذ في هاذين الكوبين؟ أجبت: نعم. وعندها أخذ يضحك تارةً ويلعن سوء فهمي تارةً أخرى. فأخذ يشرح لي، وتعلمت الفرق بطريقةٍ محرجة تماماً، وبعدها بدأت أقرأ عن هذا الموضوع، وأحياناً أوجه الأسئلة للسقاة في الحانات التي أدخلها، حسب نصيحة زوجي، لأننا كنا نلبّي دعوات عشاء في المطاعم من الأصدقاء، وينبغي عليّ أنْ أتحلى بالمعرفة الكافية حتى لا أحرج نفسي، وأحرجه بالطبع.

صمتوا لبرهة. وبعد ذلك سألها صاحب البيت: ولماذا كل هذا التعقيد؟ بل أكثر من ذلك، فالكأس الذي تشرب به النبيذ، لا تشرب به البربون، وكأس البيرة لا يشبه كأس الشامبانيا، وما تشرب به الكوكتيل، لا يمكن أنْ تشرب به الجرعات السريعة، مثل التكيلا والويسكي ونحوه. تختلف أيضاً طقوس الشراب، في الإحتفالات ودعوات العشاء ومواعدة العشاق، مثلما تختلف أيضاً مخففات اللذعة، أو مضيفات النكهات، حسب نوع الكحول الذي تشربه. فالويسكي الذي تضيف إليه الماء أو الثلج، لا ينصح بأنْ تضيف له عصير البرتقال، لأنّك إنْ فعلت،

ستفسد النكهة المميزة للشراب، وهناك ما تضاف إليه الصودا، أو شريحة برتقال وهكذا. شاغبها صاحب البيت بقوله: والآن عرفنا الويسكي ولم يتبق لنا سوى الفودكا والنبيذ الذي نقرأ عنه في الروايات. قالت: لقد شربت نوعاً واحداً من الويسكي، ولكني لا أستطيع أنْ أحصي لك كل أنواعه. وما الفرق؟ الفرق في نوع المادة التي يصنع منها، على سبيل المثال يصنع الويسكي الأسكتلندي من تخمير حبوب القمح، وأما البربون الأمريكي يتمّ تخميره من عصيدة الذرة، وهذا ما يصنع فوارق النكهة بين نوع وآخر. ليس هذا فحسب، فدرجة التعتيق أو المدة التي خزن فيها بعد التقطير، تصنع الفارق في النكهة والسعر، مثلما تلاحظون في النبيذ مثلاً، فقد تباع زجاجة واحدة بمئات الآلاف من الدولارات، فيتسابق الأثرياء لشرائها كالتحف الثمينة النادرة. لست خبيرة في هذه الأمور، فقط أعرف بعض المعلومات العامة.

صاح الأعمى بمرحٍ طاغ: سبحان الله! الفرق شاسع وعلم الله واسع!

أضاف بنفس القدر من البهجة: أريد أنْ أسافر لكي أعمل عملية غسيل معدة!

ضحكت من تعليقه الساخر بشهيةٍ مفتوحة، وقالت: يبدو أنّ لديكم بعض القواعد هنا. فأجابها البروف: نعم إنْ شئتَ الدقة يا سيدتي، فكلنا نتعلم من أخطائنا، جميعنا نرتكب

الأخطاء الساذجة وهناك من يصحح مساره وهذا هو الشخص الجيد. لقد بدأت أتجنب المحظورات العشر في الشراب بفضل الإنصات للنصائح من الأصدقاء الطيبين. انتهزت الفرصة لتسأل: وماهي تلك المحظورات العشر؟ وجدها البروف فرصة سانحة لكي يستعرض معرفته الواسعة، فاستفاض شارحاً: أهمها ألا تشرب وأنت جائعٌ جداً أو ممتلئٌ جداً، في الحالةِ الأولى لن تتمكن معدتك من مقاومة قوة الشراب، وفي الأخرى ستشعر بالغثيان فتضطر لإفراغ معدتك، وهو ما يعرف بإعادة ضبط المصنع، وهذا الأمر قد يسبب لك الحرج، ويسبب لنا الخسارة الفادحة. قاطعته السيدة: هل خسارة كأس تعني شيئاً مهماً؟

بالطبع، إذن: ماذا لو الكأس الذي دلقته، كان سيمنحك ابتسامة لم تتذوقها شفتاك من قبل؟

ثانياً عليك أنْ تتفادى تماماً شرب أنواع مختلفة ما لم تكن غالية ومجّانية، لأنّ معدتك لو تحمّلت هذه الأنواع، لن تسلم من الصداع صبيحة اليوم التالي.

ثالثاً أحضر الكمية التي تكفيك فقط، كل المشاكل تبدأ بعد رحلة البحث عن الزيادة. لو شربت لوحدك بإمكانك أنْ تستمع لموسيقى تحبها، فهذا يجعل تفاعلك أسرع، فلن تحتاج إلى رفقة مزعجة.

رابعـاً إيـاك أنْ تجلـس في قعـدة سُـكر وفيهـا شـخصٌ تكرهـه أو العكـس، سـيجتهد العقـل الباطـن في البحـث عـن أي فرصـة لإثـارة المشـاكل، فتضيـع سـهرتك بـلا فائـدة، وربمـا تذهـب إلى المسـتفى أو السـجن.

خامسـاً عندمـا تبـدأ الـشراب في بيتـك أو أي مـكان آخـر، إيـاك أنْ تذهـب لقعـدة شرب أخـرى حـين تثمـل، فالمـزاجُ سـيكون مختلفـاً، وربمـا نـوع الـشراب الـذي تجـده هنـاك، وليسـت هـذه المشـكلة فقـط، ولكنـك إنْ فعلـت ستفسـد عليهـم مواضيعهـم التـي كانـوا يتسـامرون فيهـا، فلـن تـروق لـك مهـما حاولـت، فمزاجـك مختلفٌ وأنـت لم تخطـط لزيارتهـم أصـلاً.

سادسـاً تجنّـب الإنشـغال بهاتفـك المحمـول في جلسـات الـشراب، كذلـك لا تكتـب منشـورات في مواقـع التواصـل الإجتماعـيّ وأنـت ثمـل، فلسـت مضطـراً للتعبـير عـن آرائـك في هـذه الحالـة، فلـن تتوقـف الحيـاة لـو أجلـت هـذه الأفـكار التافهـة إلى الصبـاح.

رقـم سـبعة هـي مرتبطـة كليـاً بالقاعـدة السادسـة، فعليـك أيضـاً تجنّـب الحديـث مـع النسـاء وأنـت ثمـلٌ، المـراودات، حفـلات التشـهّي، والعـروض الجنسـية التـي تقدّمهـا وأنـت غائـبٌ عـن الوعـي، بإمكانـك أنْ تعتـذر عنهـا في الصبـاح، ولكـن عهـود الـزواج ربمـا تكلفـك البقـاء طـوال حياتـك مـع امـرأة، تتبـادل معهـا اللعنـات صبـاح مسـاء.

ثامناً عليك ألا تشرب أكثر من طاقتك، درّب نفسك على أنْ تتعرف على اللحظة المناسبة لرفض كأس، وهذا أمرٌ يجتهد الشيطان لكي يجعلك تفشل فيه، وأنت شخصٌ بلا كرامة في الأساس.

تاسعاً لا تحاول أنْ تثرثر مع الأشخاص غير السكارى، فلن يطيقوا الحديث معك، وأنت ستكره أمهاتهم. أشدّد، عليك بتجنبهم تماماً، فأهميتك التي تشعر بها، لا تجعلك في أنظارهم سوى وغداً حقيراً.

عاشراً ينبغي عليك أنْ تضع رأسك في نفس المكان الذي شربت فيه كأسك الأخير. ولكن أهم قاعدة: عليك ألأ تنس العشاء.

هل أخبرتكم من قبل؟

صاح الأعمى مبتهجاً: كلا، لقد أخبرتنا من قبل ومن دُبر!

أخذت تضحك بشكلٍ هيستيري لدرجة أنه توقّع أنها تسخر من هذه القواعد غير المكتوبة. ولكنها باغتته مندهشة: أنت لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وذكرتها. قاطعها: بالطبع ليست كلها، هناك قواعداً أخرى لم أذكرها لأنها أمور بديهية معروفة للجميع، من ضمنها أنْ لا تقود السيارة وأنت ثمل، وإنْ كانت تلك القاعدة ينظّمها قانون المرور. وعليك أيضاً ألا تلبي دعوة للشراب دون أنْ تحمل معك شيئاً حتى لو كانت علبة دخان، هذا أمرٌ نتركه لتقديرك وذوقك الخاص. وأنْ تتحاشى الحديث

في المواضيع التي حدثت في الليلة السابقة، لأنّ أهم ابتكارات الخمر، أنْ يلغي الماضي تماماً. الأهم من ذلك كله، عليك ألا تنسى وجبة العشاء.

في تلك الليلة أرادت أنْ تتقرّب إليهم عبر سماع حكاياتهم. اعتبروني غير موجودة. قالت ذلك وهي تشعل سجارتها. عملياً كان صانع الطعام هو من قام بإشعال عود الثقاب لها بحركةٍ مسرحية معتادة لديه. وحتى يبدوا مؤدبين أو فلنقل متحضرين في نظرها، امتنعوا عن تبادل السباب في حضرتها. وهذه أقسى عقوبة يمكن أنْ يتعرض لها سكارى يعتبرون تبادل الشتائم من أهمّ تكتيكات القعدة. ولكن تخطيطاتها ذهبت أدراج الرياح، فوجدت نفسها دون أنْ تشعر تكمل تلك الحكاية القديمة التي بدأت في سردها، فكانوا آذاناً صاغية لها.

بالفعل قررت أنْ أنجب ثانية. وهذا القرار بدا جنونياً بشكلٍ قاطع، إلا أنه لا توجد موانع في حال أنها قررت المضي فيه. كانت السيّدة ذات العينان المجنونتان في طريقها لتنجب للمرة الثانية من زوجها الرّاحل، أتخذت هذا القرار قبل أنْ تقابل ذلك الرجل في المصعد للمرة الأولى. حدث ذلك بشكلٍ تقليديّ عندما كان يهمّ المصعد بالصعود إلى أعلى، فصاحت من منتصف الرّدهة: مرحبا مرحبا، من فضلك انتظرني. ولكنّ المصعد لم يطق صبراً فغادر وهو يطلق صوتاً محشرجاً بفعل حوجته إلى التزييت. همدت خطواتها متعبة وهي تنتظر وتراقب المصعد إلى أنْ استقرّ في الطبقة الرّابعة، وبعد ثوان شاهدت الزر يشير

إلى عودتـه هابطـاً. لم تـره قبـل اليـوم في البنايـة، لهـذا وجّهـت لـه السـؤال مبـاشرة في اليـوم التـالي: هـل انتقلـت حديثـاً؟ فأنـا لم أرك مـن قبـل. ابتسـم بمـودّة راقيـة. أكـثر مـن شـهر، هـل أنـتِ جديـدة أيضـاً يـا سـيدتي؟ لا أنـا أسـكن في الطبقـة ذاتهـا. أجابـت. لم أرك مـن قبـل، سـعدت برؤيتـك يـا سـيدتي. تعارفـا بهـذه الطريقـة الخاليـة مـن المفاجـأت. تبـادلا رقـما الهاتـف، مـع العلـم أنـه لم يحتـج أنْ يهاتفهـا. لقـد طـرق بـاب شـقّتها بجـرأة ففتحـت لـه. خرجـا إلى العشـاء في تلـك الأمسـية وطلـب منهـا الـزواج بسرعـةٍ مقلقـة. أدهشـها فسـألته متهكّمـة: هـل تعنـي أنْ تتـاح لي الفرصـة لمعرفـة اسـمك الثـاني عندمـا توقّـع عـلى وثيقـة الـزواج؟ ضـاق الأعمـى بثرثرتهـا لأنهـا لم تـشرح النقطـة الأساسـية غـير المفهومـة بالنسـبة إليهـم جميعـاً. أرجـوك يـا سـيدتي، اشرحـي لنـا كيـف تنجبـي للمـرة الثانيـة مـن زوجـك الرّاحـل قبـل أنْ تمـضي قدمـاً في حكايتـك.

واصلـت: عندمـا أكتشـفت أنّ زوجـي الراحـل يعـاني مـن بعـض المشـكلات، ذهبنـا إلى المشـفى كـما أخبرتكـم مـن قبـل، وهنـاك أخـذوا بويضـاتي وحيواناتـه المنويـة، وتـم حفظهـا عندهـم، وقالـوا أنهـا صالحـة لمـدة خمـس سـنوات. لهـذا ذهبـت وقمـت بعمليـة التخصيـب، وهكـذا حملـت وأنجبـت بعـد موتـه. تعجّبـوا جميعـاً، وعـلى الرغـم مـن سـهولة حـدوث هـذا الأمـر مـن الناحيـة التقنيـة، ولكـن لم يسـمعوا بمثـل هـذا مـن قبـل. تجرّعـوا دهشـتهم العريضـة: كيـف يحـدث هـذا؟ ألا يعتـبر حرامـاً؟ ألا تسـقط الأُبـوّة

بعد الموت؟ قطعت تساؤلاتهم مضيفة: الغريب أنّ الرجل الثاني الذي تزوجته، أكتشفت أنه يعاني من نفس المشكلة! وكانت لديه أفكاراً بخصوص تبنّي أحد الأطفال.

صمتوا لمسافةٍ لم يتخللها سوى خرير السائل السحري وهو ينساب في الكؤوس، وبالطبع لم يصدّق أحدهم حكايتها. وإنْ كان البروف هو أول من بادر بالسؤال: هل لي أنْ أعرف يا سيدتي لماذا أقحمتِ سيرة الرجل الثاني في الحكاية؟ القصة الأساسية غريبة في حدِّ ذاتها. قالت له: لأني أنجبت فعلياً طفلي الثاني وأنا زوجة لهذا الزوج الثاني. فغر البروف فاهُ عجباً: غير معقول! لك أنْ تصدق أو لا تصدّق، ما يحمد له أنّ الدولة التي كنت أعيش فيها، لا يطرح أهلها مثل هذه الأسئلة. سؤال أخير: أين أطفالك؟ هما إثنان فقط، والآن يعيشان مع أمي.

* * *

وجودها بين هؤلاء الحثالة من الرجال، جعلها تتحول، بدراماتيكية عبثية، إلى شخصية تشبه زوجة الطبيب في رواية العمى، كادت أنْ تكون الوحيدة المبصرة وسط جيشاً من العميان. والمفارقة أنّ الطبيب الوحيد معهم في تلك العزلة، كان طبيب عيون أعمى، وهو آخر من يحتاجون إليه فعلياً. في الواقع، وجودها في هذا المكان خطأٌ شنيعٌ مثل احتساء المريسة في الكأس. وهو أمرٌ لا يميزها، بل يكاد يجعلها مصدر

ضيقهم الوحيد، لأنهم لم يتعوّدوا على مجالسة النساء، ربما خشيةً على حرياتهم وخصوصية تلك الجلسات. في الواقع لم يتعرفوا على امرأة تشرب الخمر في محيطهم القريب المتحفظ إلى درجةٍ متزمّتة. ومع ذلك صبوا لها كأساً، فامتنعت عن الشرب بلطفٍ حذر. لهذا صاح صاحب البيت: لا نرحب بوجود الصندوق الأسود بيننا. لم تفهم ما رمى إليه، فتلفّتت حيرى، فأخبرها البروف أنّ السكارى عموماً يعتبروا وجود أي شخص واعٍ وسطهم هو بمثابة متلصّص ومراقب لأفعالهم وأحاديثهم، لهذا يطلقون عليه الصندوق الأسود. وهو مجرّد نكرة مرذولة، وبالتالي لن تجدي نفعاً كل المحاولات التي تبذلها لكي تثبت لسكران بأنك مواطن صالح. إنسانيتك يحدّدها الكأس الأول دائماً. وقبل أنْ تفعل ذلك أنت مجرد رقم!

في تلك السهرة شعرت السيّدة ذات العينان المجنونتان بالجوع، جذبتها الرائحة اللذيذة، فقامت بفتح قدر الطعام دون استئذان وسألت: ماذا تطهون يا أصدقائي؟ الرائحة شهيّة جداً. فغضب الرجل تماماً وأكفهرّ وجهه. لم تتلق تحذيراً من أحدٍ حتى لا تقدم على هذه الفعلة الشنيعة. ولأنها سيّدة جميلة عوضاً عن أنها ضيفتهم، أعتقدوا أنّ صانع الطعام قد يستثنيها من قواعده الثلاثة الصارمة في صنع الطعام. لا تساعدني، لا تسألني عن الطريقة، لا تفتح القدر وهي على النار. ثلاثة قواعد بسيطة جداً، يتعامل معها بصرامة فظة وغير محتملة للجميع. قبل هذا سبق أنْ قام بدلق طعام العشاء الذي كان يطبخه لهم، لمجرّد أنّ أحدهم قام بفتح القدر لينظر كم

تبقى للطعام حتى ينضج، فناموا وهم جوعى. نهض مسرعاً بإتجاهها، ولأنها لا تعرف نواياه، تنحّت جانباً محاذرة. رمقها بنظرةٍ غاضبة، وحمل خرقة موضوعة أمام الموقد، وبدأ يمسح القدر الساخن، وكأنه يريد تطهيرها من فايروس لعين. كان تصرّفه محرجاً لها، فأخذت تتأسف منه وهم يحدّقون إليه بغضب. ولكنهم توانوا في شرح ما حدث، دون أنْ يتوقّفوا من صبّ لعناتهم عليه. وبهذه الطريقة السخيفة استطاعت أنْ تعرف أنّ الشعور بالحرج، هو الطريقة المثلى التي يلجأ لها الإنسان لكبت الغضب. لو كان بوسعها لصفعته عقاباً له على ردّة فعله غير المعقولة. فالإنسان يحمِل طوال حياته، التصرّفات الطائشة التي كان يقوم بها داخل رحم أمه.

شعر صانع الطعام بالحرج من ردّة فعله الحمقاء، فاقترب منها وهي تشيح بوجهها بعيداً.

أنا آسفٌ يا سيدتي، فعادتي ألا أسمح لأحد أنْ يتدخّل في طريقة إعدادي للطعام. فقالت: ولكني لم أتدخل مطلقاً، فقط وددت أنْ أعرف نوع الطعام الذي تعدّه. فبادر للشرح قائلاً: حين بدأنا نجتمع في هذا الصالون لأول مرة، أي بعد أنْ صرنا أصدقاء، لم يكن مهمّاً أنْ نحدد من هو الذي يصنع الطعام، ولكن في إحدى الأمسيات، ذهبت إلى السوق، فأشتريت من القصّاب كميةً معتبرة من الكوارع الطازجة، وأنا أؤكد لكِ أنّ العجل الذي باعوا لي كوارعه، لم يمش في حياته أكثر من عشرة كيلو متر. أحضرنا كل المسلتزمات، وبدأنا نشرب. فقرر البروف

أنْ يتكفّل بالطبخ، فقلت وماذا يمنع، فليكن. لا أريد أنْ أطيل عليكِ الحديث، ولكن ثقي أنّ الكوارع التي طبخها البروف كانت سيئة بشكلٍ مريع، وأؤكد لكِ أنّه لو غسل أظلاف العجل في قدر، لاستطاع أنْ يطبخ كوارع أفضل من تلك التي طبخها البروف. لهذا منعتهم منذ ذلك اليوم أنْ يقتربوا من صنع الطعام.

لم تستطع أنْ تمنع نفسها من الضحك رغم الحرج الذي سبّبه لها قبل لحظات.

هؤلاء الأشخاص حين طرق الوعي أبوابهم وجدهم غرقى في نشوة الإيثانول باستماتةٍ فائقة. ضائعون متشبّثون بغرقهم طوعاً، فليس من اللائق أنْ ترمي لهم طوق نجاة فهم ببساطةٍ لم يطلبوا العون. حين يحلّ المساء، تصيب الرّعشة صانع الطعام، لا يقدر على الثبات في مكانٍ واحد ريثما يحضر الصبي الذي أرسلوه لشراء الخمر، بعد أنْ صارت مضايقات الشرطة لا تحتمل. يراقبه البروف ويقول متهكّماً: هذه مضار الإيثانول المكثّف يا أخي. وما هي مضاره أيها البروف؟ يسأله الرّجل المرتعش. يفقدك الذاكرة. يردّ له الصاع ساخراً. يا رجل سألتك عن مضاره لا عن منافعه، فمن يشرب لكي يتذكر أصلاً؟ هذا ما يفهمه، وحسب رأيه الثابت، السكران هو أسعد حظّاً من الواعي، فهو لا يحتاج أنْ يؤجل الشعور بالمأساة إلى الغد، فالمأساة قطعاً غير موجودة في قاموسه. الإنسان قبل أنْ يرفع الكأس ليس نفسه بعد أنْ يفرغه في جوفه، لأنه يتحوّل من شخصٍ خاملٍ إلى آخر كامل النسيان، وهذا ما ينشده بالضبط.

ملل الانتظار فقط هو الذي أقحم البروف في هذا السجال، ولكن صانع الطعام استغرق فيه حتى يتغلّب على رعشته التي بدا أنها تحتاج إلى مداواة. كان البروف هو العازب الأكبر وسطهم، وهو أيضاً أكثرهم تعليماً، كان يدرّس علم الميثولوجيا بكبرى جامعات البلاد لسنواتٍ متتالية. لهذا يسخر منه الأعمى أحياناً بقوله: إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع. وبحكم العادة كان البروف قادرٌ على ضبط انفعالاته وكبت مشاعره، فليس من السهل أنْ يشعر الناس بمقدار الحنق الذي يشعر به تجاه الحياة عموماً. فقد بدّد أزهى سنين عمره في القراءة والبحث، وفي النهاية ينتظر آخر الشهر لكي يقبض راتباً لا يكفيه لأكثر من عشرة أيام. فصاروا رفقة مثاليون له، فهو يتحرّر معهم من كافة القيود، ولا يحتاج إلى أنْ يرتدي، على الدوام، جلباب الأستاذ الجامعي المرموق. وهذه الحقيقة لا تهمهم أيضاً، في حال أنه قرر أنْ يفرضها عليهم.

يتكئ صانع الطعام على حافة السرير، تغرق روحه في النشيج المرير، بكامل حزنه ذاك، يدفن نفسه في التفاهات، يقهقه لأنّ قلبه لا يفهم وجهة نظر عقله الأخيرة تجاه الحزن. لطالما أربكه، حين يكتشف أنّ دموعه السائلة ما هي إلا إفراطٌ عبثيٌ في التفاهات، فيبدأ في الثرثرة البليدة. أعشق صنع الطعام يا أخوتي، هذا ما يحعلني مسؤول عنكم، إذ لا يوجد في العالم سواي يأبه لأمر مأكلكم ومشربكم. يغمغم كمن يمضغ قطعة لحم غير ناضجة تتفلّت بين أضراسه. وعلى الرغم من تناقضاته الحادة، ولكن مواقفه المترددة هي نفس مواقف عود الثقاب في

تصلبها، تخدشها الآراء المخالفة، فيحترق كلاهما، الموقف وعود الثقاب. يحترقان، تمتد ألسنة النار إلى قلبه فيضطرم بالسباب واللعنات. كل هذا لا يسكت الرعشة. عطش الإيثانول يصبّ في جسده بحيرة ثلجية، يتناثر إلى عشرات الأوردة الهائجة، ولكنه غير مدمن بطبيعة الحال. هذا ما لا يقبل الإعتراف به أبداً. أنا لست مريض ولا أحتاج إلى من يشفق علي. إجابة معلبة لا ينتهي تأريخ صلاحيتها مهما ساء حاله. يتلقى صبي توصيل الطلبات لعناته حين يحضر أخيراً، تفوح الرائحة المقدسة من الغطاء المحكم للقارورة، يشرب كأسه، يتسسل خيط النار عبر صدره، يتلظّى، فينتهي الحريق الى بحيرة ثلجية ساخنة، تغمر كل جسده، تغسل روحه، تهمد حركته، فتهدأ أنفاسه، فيصيح مبتهجاً: والآن يا سادة بمقدورنا أنْ نفكر في الطعام.

يشرع في تجهيز العشاء، تتعالى نوبات السعال والعطس، فهو قد بدأ في تقطيع البصل إلى شرائح متناهية في الصغر. يمسح دموعه بكمّه ويلعن في سرّه، ولكن هذا لا يمنع أنْ تبلغه لعنات جهريّة غير مستجابة. يفتح حانة الذكريات العتيقة، يتعالى صرير أبوابها الخشبية الثقيلة، تتصاعد منها أدخنة وغبار، تتسلّل روائح أمعاء عضّها الجوع. تصيح فتاتان ذابلتان، صار لونهما ترابيّاً كالحاً إلى الأبد. وصدر أمّه المتعب، يهرِّب التنهيدة تلو الأخرى، بكفّيها الممدودتان نحو السماء تفكّ حبال الدعوات كسربِ طائرات ورقية غير ملونة، والسماء غائمة والليل مسدلاً أستاره. الفتاة الكبرى موهوبةٌ بالبكاء

منـذ ولادتهـا، ولديهـا تفسـيرها لذلـك. فحـين ولـدت لم يكـن الحـال ضنـكاً، لهـذا تفتقـد تلـك الأيـام. أمـا الصغـرى فاحترفـت الصـبر منـذ ولادتهـا، ولأنهـا لم تخـبِر الشـبع، فهـي لا تحـنُّ لـه حتـى تزعـق بالبـكاء مثـل شـقيقتها. وضعـت أمـه القـدر عـلى النـار، وكادت أنْ تبحـث حتـى تحـت الفـراش، لعلهـا تجـد شـيئاً مخبـأ تحتـه. تعلـم أنهـا فكـرة سـخيفة، فـأي طعـام يوضـع تحـت الفـراش، كـما أنهـا كانـت متأكـدة مـن عـدم وجـود المـال. القـدر ممتلـئٌ بالمـاء، ولكن لم يكـن يوجـد في قعـره شيء يمكـن أنْ يمضـغ. نـواح الفتـاة يذكرهـا بلحظـاتِ مخاضهـا، يرفـس الجنـين، يتململ في العتمـة السـوداء، يتسـلّل رويـداً رويـداً مـن متاهـة الرّحـم، يسـبح في بحـيرة الظـلام، يتلـوّى داخلـه يائسـاً، يحـسّ أنـه في قبضـة كابـوس مزعـج، لا تحـرّره إلا صرخـة هائلـة، تعلـن مجيئـه إلى الحيـاة والشـقاء.

تخـرج الأم الملتاعـة يجرجـر اليـأس خطواتهـا، يدفعهـا للنبـشِ في قبـو الـلا شيء بـلا شيء، تسـتودع ابنهـا الصغيرتـان المسـكينتان ولا تنـسى أنْ توصيـه عـلى القـدر الخـالي مـما يمكـن أكلـه. تخـرج حائـرة فتـدقّ أبـواب الجـيران النائمـون. فتـح لهـا أول بـاب طرقتـه، ولكنهـا كانـت لا تنتظـر أبـداً، فأغلـق البـاب مـرة أخـرى وتعـالى صـوت السـباب. وبهـذه الطريقـة، تلقّـت لعنـات سـكان الشـارع كلـه. في طريقهـا عائـدة تحمـل خيبتهـا، سـقط قلبهـا تحـت قدميها حـين سـمعت العويـل الموجـع. رجعـت لتخبـط كل الأبـواب تطلـب المسـاعدة، فهبـوا لذلـك، لم يسـعفهم الحـظ لإنقـاذ البيـت المحترق، يكفيهـا أنْ تشـكر اللـه أنّ أطفالهـا خرجـوا بحـروق سـطحية. أطلـق

تنهّدة طويلة، وقال: سيكون خِزياً عظيماً للحياة، لو عرفت أنّ الجوع هو وسيلتنا للموت.

بل: يا لها من صفعةٍ تتلقّاها المعدة بدلاً عن القلب!

* * *

كتب عقبة بن عامر قال: كان لنا جيران يشربون الخمر، وإني نهيتهم فلم ينتهوا، فأنا داعٍ لهم الشرط، فقال: دعهم، ثم رجعت إلى عقبة مرة أخرى فقلت: إنّ جيراننا قد أبوا أنْ ينتهوا عن شرب الخمر، وأنا داعٍ لهم الشّرط، قال ويحك! دعهم، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رأى عورة فسترها، كان كمن أحيا موءودة.

تبرّع أحدهم بالإبلاغ عنهم. ليست إحداهن، لأنّ الشر مذكرٌ في الغالب. ولمثل هذه الأمور لم تتأخر الشرطة. وأما التّهم فهي متوفرة، والإزعاج العام أيسرها. فاقتيدوا إلى مركز الشرطة، ونام الجماعة هناك حتى الصباح. وبعد ذلك مضوا بهم إلى القاضي. الذي رماهم بنبال نظراته المتوعدة زماناً طويلاً، وسأل بعد أنْ تُليت له الأسماء: أنت، لماذا شربت الخمر؟ فقال: أتداوى بها يا سيدي القاضي. وما نفعها؟ قال: جلب النوم، وجودة الهضم، والكثير من المنافع. لم يطلق عنان غضبه كما توقعوا، فتجاوزه وسأل: أنت لماذا شربت الخمر؟ فقال: لإزالة الغصّة يا سيدي القاضي، فهي تنشط الكسلان وتروي العطشان، وتشجّع الحبان، وتسخي البخيل، فيعطي الجزيل. الثالث أنكر علمه بها قبل شربها، فقال: شربتها مجبراً يا سيدي القاضي.

قال: كيف؟ قال أنا أعمى وقد أعطوني الكأس فشربته كله. تعجّب القاضي، فسأله: أما ميّزت طعمها ولا رائحتها؟ قال: بلى يا سيدي القاضي، ولكن روحي لم تأبها. أما الرابع فقال: نفسي مؤرقة لا أنام، وصفوها لي، ولكنها جعلتني أنام في السجن.

قلب القاضي أوراقه المبعثرة أمامه، وكان يقطع هذا بالنظر في وجوههم الكئيبة، وبعد ذلك نطق الحكم: أربعون جلدة لكلِ واحدٍ منهم. فصاح أحدهم: الخمر ليست محرّمة يا سيدي القاضي، ولكن منهيٌ عنها، لو أراد الله تحريمها لقال: حرّمت عليكم الخمر، كما قال، حرّمت عليكم الميتة والدم. أضاف القاضي: أربعون جلدة وألف جنيه غرامة وشهرٌ في السجن. صاح الحاجب بصوتٍ جهور: محكمة! لم يسمع القاضي قول الأعمى: كلبٌ طاشِم، خيرٌ من قاض غاشم!

دفعوا بعض المال للشرطي حتى يجلدهم برأفة، ولما كان مفلساً، قام مشكوراً بتخفيض عدد السياط المقررة إلى النصف فقط. فهو يعلم تماماً أنّ الدين يُسْر.

بعد خروجهم بعد انقضاء شهراً في السجن، صارت السهرات في الصالون أمراً صعباً لا يمكن المغامرة به. فتوقفوا عن ذلك لأكثر من شهر، وبعد ذلك بدؤوا يعاودون الكرّة مجدداً، ولكن بحذرٍ بالغ. ولكن عادت حليمة لعادتها القديمة، فجلسوا في تلك الأمسية وشربوا كثيراً. أكثروا من الحديث بأصواتٍ مزعجة، تردّدت أغنياتهم الناشزة، وأرتفعت أصوات صراخهم وشجاراتهم. قامت السيدة والدة صاحب البيت بالتصريح عن رفضها التام لحضور رفقة السوء إلى بيتها مرة أخرى. وحتى

لـو جـاؤوا للسـلام، فـلا رغبـة لهـا في رؤيتهـم مجـدداً في بيتهـا. أحتـجّ ابنهـا، فرمـت عليـه يمـين الطـلاق بحسـم تـام: وأنـت كذلـك أيهـا العـاق أخـرج مـن بيتـي ولا تعـد أبـداً قبـل أنْ أطلـب لكـم الشرطـة فتأخذكـم إلى السـجن مـرةً أخـرى. خرجـوا أربعتهـم مترافقـين، وذهـب ثلاثـةً منهـم إلى بيوتهـم، ولكـن لم يتذكّـر أحـد منهـم صاحـب البيـت، ولم يسـألوا عـن الكيفيـة التـي يتدبّـر بهـا أمـره. وهـذا التـصرّف يجعـل منهـم رفقـة سـوء مثاليـون. فعندمـا يصـدأ المسـمار، يرمـى بعيـداً، وتلتهـم باقـي المسـامير حصّتـه مـن الخشـب!

* * *

في ذاك اليـوم الـذي أعقـب طـرد صاحـب البيـت مـن صالـون بيتهـم، اسـتيقظ مـا يقـارب السـاعة العـاشرة صباحـا. وبذاكـرة مشـوهة تمامـاً، لم يكـن يتذكـر أبـداً مـا حـدث في الليلـة السـابقة، وفي الحقيقـة أنـه لم يتأكـد مـن حدوثـه أصـلاً. خيـل لـه أنـه في مـكان آخـر مـن العـالم خُلِـق للتـو. هـذا المجهـود الفكـريّ كان أكـثر مـا اسـتطاع عقلـه أنْ يبذلـه، لهـذا لم يكـن هنـاك داعٍ لطـرح الأسـئلة العبثيـة. اسـتطاع تمييـز القـارورة الموضوعـة أمامـه، وهـذه النعمـة كانـت كل مـا يهمـه. وجـد فيهـا مـا يقـارب نصـف اللـتر. أمـا المفاجـأة السـعيدة الثانيـة، فكانـت تتمثّـل في وجـود قارورتـين أخريـين ظلتـا تتدحرجـان بالأسـفل طـوال الوقـت بفعـل مروحـة المنضـدة القويـة التـي ظلـت تـدور مطلقـة صوتـاً مزعجـاً لا يحتمـل. لهـذا قـرر سريعـاً أنْ يحتـسي كأسـاً يسـاعده في طـرد الصـداع وأعـراض الخمـر الإنسـحابية. وبهـذه الطريقـة البسـيطة،

قضى الثلاث أيام القادمة، دون أنْ يتطرّق إلى ذهنه سؤال حتى يجهد عقله البائس في البحث عن إجابة له. على شاكلة: أين أنا؟!

كان من المهم أنْ يحصل على كأس التصحيح، أو كما يطلق عليه وصف الثورة التصحيحية. ففي صباح اليوم التالي، قد تضايقك الأعراض الانسحابية للخمر، وتفقد للشهية وتشعر بالإعياء الشديد كما هو متوقع. لهذا سيساعدك هذا الكأس على تصحيح أخطاء الليلة السابقة. العقل ليس مطيعٌ على الدوام، أحيانا يكون ضدك، فكن خصمه، وما عليك إلا أنْ تقاوم دولته العميقة قبل أنْ تستقوي عليك، فتجد نفسك وأنت تطارد الأكياس في الهواء، أسوةً بالمساطيل عبدة الزهرة الشريرة.

ولكي لا نبدّد الوقت في الحديث عن ما حدث بعد أنْ أفاق تماماً، دعونا نتخطى هذه المعضلة ونحاول التعرف على وضعه الجديد. ولكن لا ضير في أنْ نواصل تسميته بصاحب البيت، وهذا ما يدعمه وجوده في هذا البيت الذي لا يعرف من هو صاحبه، ولا كيف انتهى به الأمر إليه. لذا فكر في إجراء بعض الإتصالات الهامة بعد عثوره على تلفونه الفارغ من الشحن. بعد أنْ كافأ نفسه بحمام بارد ومنعش، وجد بقايا طعام ولم يكن يعرف من الذي أعده أو أحضره له، فهو لا يزال وحيداً في هذه الشقة التي تتكون من صالة واسعة، متصلٌ بها مطبخ صغير على الطراز الأمريكي، لا توجد فيه أوانٍ، أو هكذا

ظـنّ، لأنّ الأواني كانـت مكدّسـة في الخزانـات العلويـة. وربمـا يوجـد بهـا أكـثر مـن غرفـة. فهـو تقريبـاً لم يغـادر كنبـة الصالـة التـي ظـلّ ينـام عليهـا لمـدة ثـلاث أيـام، إلا في الحـالات التـي يأخـذه فيهـا الطيّـار الآلي، أو بعـض القـوى الخفيـة لتلبيـة نـداء الطبيعـة. ولكـن هـذه المعلومـة مـن اليسـير أنْ يتأكـد منهـا قريبـاً. أعـد كوبـاً مـن القهـوة بعـد فراغـه مـن الطعـام، وجلـس وفتـح هاتفـه ليجـر بعـض المكالمـات. امتقـع وجهـه بشـدّة حـين أكتشـف أنّ هنالـك أكـثر مـن سـتين سـاعة قـد مـرّت، دون أنْ يفهـم مـا جـرى لـه، وأيـن هـو!

لا يهـمّ أنْ يعلـم أيـن هـو، ولكنـه جـاء مـن مـكانٍ جيـد حظـي فيـه بأوقـاتٍ سـعيدة.

بوسـعِ أي شـخص أنْ يصـف هـذه الصالـة بالمجنونـة دون أنْ يعـترض أحـد عـلى هـذا الوصـف. يـا لهـا مـن مقـبرة نيكوتـين هائلـة، بحيـث يكـون السّـعال هـو البديـل المناسـب لإلقـاء التحيـة لمجـرد أنْ تدخلهـا. تسـخر مـن هـذا البـؤس آيـة قرآنيـة معلقـة في لوحـة ذات إطـار ذهبـي مكتـوبٌ فيهـا برسـمٍ جميـل {يُطَـافُ عَلَيْهِـمْ بِـكَأْسٍ مِـنْ مَعِـينٍ بَيْضَـاءَ لَـذَّةٍ لِلشَّرِبِـينَ} تجاورهـا في وئـامٍ نـادر أبيـات شـعر كتبهـا مظفـر النـواب: المـشربُ ليـس بعيـداً. مـا جـدوى ذلـك، فأنـت كـما الإسـفنجة، تـشربُ الحانـات ولا تسـكر.

عـلى منضـدة كبـيرة تُـرى زجاجـات بـيرة مغـبّرة مـن طـراز أبـو جمـل العتيقـة التـي لم تعـد تصنـع الآن. كانـت أكـثر قـذارة مـن أنْ

تتخيلها كديكور، ولكنها تصلح لكي تكون شاهداً على زمنٍ ما توارى فعلياً من روزنامة السنوات. كذلك توجد بضعة كؤوس عتيقة علق عليها الكثير من التراب حتى لا تكاد تميز لونها الأصلي، ومجرّد رؤيتها تثير فيك رغبة ملحّة في العطس. وضعت على المنضدة منفضة سجائر ممتلئة تجاور الكنبة المتسخة التي يجلس عليها البروف دائماً. وعلى الرغم من عدم حبه للتدخين، إلا أنّ مكانها لا يتغيّر، ولا يستطيع أحد تنظيفها. لأنّ صانع الطعام يحبّز تركها هكذا. فحسب تفسير هذا المدخن الشره، أنه يحبّ تركها مليئة بأعقاب السجائر لكي تذكره دائماً بالأيام التي يكون لديه وفرة في السجائر، فهو بذلك يستعيد ذاكرة المجد النيكوتينيّ، إنْ جاز لنا التعبير.

ما حدث لصاحب البيت هو أمرٌ يخصّ جهازه المناعي، بالطبع حين أفرط في الشرب، لم يكن يشغل باله بهذه الأمور التي تفسد اللذة وتذهب بالمتعة. الغثيان والصداع والفتور الذي تعرّض لهما بعد أنْ أفاق، ما كانت سوى احتجاجات شرسة من جهازه المناعيّ على تعامله السيء طوال فترة غيابه المجيد. لهذا لم يكن يشعر بالهذيان الارتعاشي الذي تعرّض له في فترات الغيابات الطويلة، لأنه وببساطة، كان خارج التصنيف تماماً. تراوحت ردّات فعل جسده، ما بين التعوّد على الانسحاب المطلق أو النسبيّ، وهذا الجسد ليس بمقدوره ترويض هذا الكائن أبداً. على كلٍّ فقد نجا من محاولته الإنتحارية اليائسة. ربما يكون في العمر عدة أنخاب قادمة.

لـن نتحـدث هنـا عـن ممانعته لـشرب المـاء أثنـاء الـشراب لتعويض الفاقـد الكبـير الـذي كان يبـدّده أثنـاء تـردّده عـلى المرحـاض للتخلّـص مـن الحمـض المعـروف بأوريـك الأسـيد. لهـذا تشـاجر مـع الـبروف في إحـدى السـهرات قبـل وقـت طويـل، لأنـه صـبّ لـه بعـض المـاء في كأسـه، بحجّـة أنّ المـاء يذهـب بركـة الخمـر. لهـذا لا ضرورة للدهشـة حـين تسـمع ردّه عـلى توضيـح الـبروف حـين قـال لـه مـبرّراً فعلتـه: ضـف المـاء كي تقلّـل الأعـراض الانسـحابية للخمر. ابتسـم وقـال: ومـن قـال لـك أننـي أريدهـا أنْ تنسـحب؟ بوسـعنا القـول أنّ هـذا يرضيـه كمدمـن متشـدّد، ترتكـز اسـتراتيجيته الأساسـية عـلى أنْ يـشرع في الـشراب وهـو جائـع، حتـى يثمـل بـأسرع مـا يمكـن، مـع عـدم اغفـال الناحيـة الإقتصادية الأخـرى، أي أنْ تكفيـه زجاجـة واحـدة بـدلاً مـن إثنتـين. يصفّـق الـبروف بكفّيـه سـاخراً، ولكـن هـذا لم يمنعـه مـن قبـول التحـدّي، بـأنْ يكمـل معـه الزجاجـة دون إضافـة قطـرة مـاء واحـدة. وهـذا مـا كاد أنْ يتسـبّب في رفـده مـن وظيفتـه في الجامعـة صبيحـة اليـوم التـالي.

* * *

أنـا هنـا أحـاول فهـم مسـألة غامضـة: أيـن يغيـب الوعـي؟ السـؤال عـلى بسـاطته يبـدو محـيّراً. فهـو ببسـاطةٍ يقـودك إلى تصـورٍ بـدائيّ يفـسّر لـك السـؤال أولاً، ولكنـه لا يضـع الإجابـة عـلى مشـنقة الوضـوح ولا يعرّيهـا بشـكلٍ كافٍ لفضـح ضبابيتهـا. الغيـاب الـذي يعنـي في ظاهـره الذهـاب، الابتعـاد، الأمـر النقيـض

لوجـود الـشيء. الأمـر الـذي يجعلـه مربـكاً أكـثر، أنّ ذهـاب الـشيء قـد يفهـم بعـدم عودتـه وبالتـالي عـدم جـدواه. إلى هنـا قـد يبـدو الأمـر مسـتطاعاً تفسـيره. إذن فلنطـرح هـذا السـؤال بطريقـةٍ أخـرى، إذا أتفقنـا عـلى مسـألة مهمـة، وهـي أنّ غيـاب الوعـي يعنـي ذهابـه: إلى أيـن يذهـب هـذا الوعـي بالضبـط؟ هـل يغـادر العقـل أو الإحسـاس أو الأعصـاب أو أي وصـف آخـر يسـتخدمه العلـم ليعـزل بعـض النـاس، مفاهيميـاً، عـن بعضهـم؟ لطالمـا أعتقـدت أنّ للعقـل مرأبـان متقابـلان. إحداهـما يصـفّ فيـه الوعـي خيباتـه، والآخـر يتعطّـل فيـه محـرّك اللاوعـي. ومـا يحـدث بعـد ذلـك ليـس سـوى نتـاج لهـذا الإصطفـاف المنهجـي، بـكلّ مـا يمكـن تخيلـه مـن عبـث.

بوسعنا الزعم أنْ الوعي في هذه الحالةِ موجودٌ ولكنه مؤجل؟

هل يصلح هذا السؤال في الأساس؟!

فليكـن: نسـتطيع أنْ نقـول أنّ وعيـه قـد سـافر بعيـداً. وطـوال هـذه الرحلـة، إلى مـكانٍ لا نعلمـه، لم يجـد بالطبـع مـن يـؤرخ لـه أو يكتـب يومياتـه. تقهقـر كذاكـرة محترقـة، وذَبُـل كغيـاب بـارد. غيـابٌ بفداحـةِ مـا دوِّن قديمـاً في سـفر التكويـن. نعـم أقصـد شـيئاً مشـابهاً لتلـك الحكايـة العبريـة القديمـة التـي تخبرنـا أنّ ابنتـا لـوط أسـكرتاه ليضاجعهـما. فقالـت البكـر للصغـيرة: أبونـا قـد شـاخ وليـس في الأرض رجـل ليدخُـل علينـا، كعـادةِ كلّ الأرض، هلُـمّ نسـقي أبانـا خمـراً ونضطجِـع معـه فنُحْيـي مـن أبينـا نَسْـلا.

بحـدوث هـذه المُـراودة الأفرُوديتيـة الصارخـة، بإمكاننـا أنْ نتخيـل الطقـس كامـلاً. احتـدامٌ كامـلٌ لأهـواءٍ نزقـة متبادلـة بـين الزجاجـة

وروح العاشـق الخاليـة مـن طرقعـة الكـؤوس، تتعبّـد بهمجيـة، تترقّـب التـماع النـور في عينـي الإلـه ديونيسـوس. آخر ما تذكـره، أنّ أحـد الرفـاق بـدأ يـردّد في أشـعار مظفـر النـواب، قبـل أنْ يـشرع العـالم في الغيـاب.

المشربُ ليس بعيداً

ما جدوى ذلكَ، فأنتَ كما الاسفنجةِ

تمتصُ الحاناتِ ولا تسكر

يحزنُكَ المتبقي من عمرِ الليلِ بكاساتِ الثَملينَ

لِماذا تَركوها؟ هل كانوا عشاقاً!

هل كانوا لوطيين بمحضِ إرادَتِهمْ كلقاءاتِ القمة؟

هل كانت بغي ليس لها أحد في هذي الدنيا الرثة؟

وَهَمستَ بدفء برئتيها الباردتين

أيقتلكِ البردُ؟

أنا يقتلني نِصفُ الدفءِ وَنِصفُ المَوقِفِ أكثر

* * *

اجتمـع شـملهم مـرة أخـرى في الشـقّة الجديـدة الآمنـة بحيـث لا يتوقّـع أنْ تـدبّ فيهـا أحذيـة الشرطـة الثقيلـة عـلى القلـب والأرض.

وذلـك عندمـا هاتفهـم صاحـب البيـت بعـد أنْ طردتـه السـيدة والدتـه مـن الصالـون. ظـنّ أكثرهـم تشـاؤماً أنـه سـيطلب منهـم سـلفةً ماليـة، وربمـا يحتـاج اسـتضافة ليـومٍ أو يومـان حتـى تتضـح الأمـور. ولكنـه دعاهـم لموافاتـه في العنـوانِ الجديـد. توالت الأسـئلة عـن وضعهـم في المـكان الجديـد. ولكـن المفاجـأة، لا أحـد يعلـم ولا ينبغـي حتـى أنْ يسـأل. لم يكـن هـذا الأمـر منطقيـاً قـط، ولكـن مـا نفـع الأسـئلة طالمـا لديهـم مكانـاً لـكي يجتمعـوا فيـه، ويمارسـوا إختفاءهـم العلنـيّ عـن هـذا العـالم؟ الأمـر المهـم، صـار الشرطيـون يتحاشـونهم لـو صادفوهـم في الطرقـات، فهـم دائمـاً سـكارى. نالـوا أرزاقهـم مـن السـياط فاكتفـت السـياط ولم ينتهـوا.

يتمنـى المـرء صـورة غـير التـي هـو عليهـا. وبهـذه البسـاطة يغـرق النـاس في الأحـلام. أحيانـاً، حـين يتسـكّع المـرء في إحـدى الشـوارع يظـنّ أنـه الشـخص الأكـثر سـعادةً في الكوكـب، ثـم يصـدف أنْ يمـرّ بمحـلٍ مـن الزجـاج، فتسـحق صورتـه المرتعشـة عـلى الزجـاج، كل أوهامـه البليـدة. جميعهـم يغرفـون مـن بركـة هـذه الأمنيـات. إنهـم يشـبهون الأغبيـاء الذيـن يتبادلـون التهـاني في بدايـة السـنة، لسـببٍ لا تعلمـه السـنة الجديـدة، يتمنـوا أنْ تتجـاوز لهـم الخيبات التـي صادفتهـم في سـابقتها. بئسـاً، لمجـرّد أنكـم أكملتـم السـنة وأنتـم عـلى قيـد الحيـاة، هـذا يعنـي أنّ القـادم هـو الأسـوأ.

عزلـةٌ تجعلهـم ينـزوون كمحـار في كـرْشِ محيـط آثـم. في الواقـع، هـو راكـدٌ أو ميّـتٌ، فقعـرِ البحـرِ سـيانٌ في ركـودهِ أو مواتـه، غالبـاً مـا تسـكنهُ الأحجـار. صامـت كراهـبٍ تسـكنُ روحـه بـالصـلاة. إبتـلاءٌ تتعـوّذُ منـه أرواحهـم كالغاسـقِ إذا وقـبْ، والشـيطانُ وأبـو لهـب. يتـوارى العـالم كالصمـتِ حـين تخنقـه العـبرات، لا يعنيـه في

شيء أنْ تنام الورقة على فراشها وحيدةً، أم تخلعُ بابها الريح. فترمي بياضها على فراغِ روحها، يصيب القلم بعض الأرق، يغرق الحبر عيناه، فينهض ليتمش قليلاً، ويترك آثاره عليها، نُدَفاً من حيادِ الثلج، تمشي الهوينا، على رمال عزلتهم، كما يمشي الوحى الوجِلُ. أما كان يا آدمَ أن تترك هذه التفاحة لما بعد الغداء، حتى تريحنا من هذا وذاك؟ عزلةٌ ومزاجٌ عكِر وجنون، عزلةٌ كتابوتٍ لم يعثر على موتى ليؤنسوا وحدته.

* * *

رُوي أنّ ابراهيم بن هرمة كان المستهترين والمدمنين عليه، وقد جلد في خلافة أبي العباس السفاح، وكان المنصور قد استحسن شعره، فقال له: سلْ حاجتك، فقال تكتب إلى عامل المدينة أنْ لا يجلدني إذا أُتِي بي سكران، فقال المنصور: هذا حدٌّ من حدود الله عز وجل فلا يجوز لي أنْ أعطله، قال: فاحتل يا أمير المؤمنين، فكتب المنصور إلى عامل المدينة: من أتاك بابن هرمة سكران، فاجلده مئة جلدة، واجلد ابن هرمة ثمانين، فتحاماه رجال الشرطة، وكانوا يمرون به مطروحاً وهو سكران، فيقولون: من يشتري مئة بثمانين؟

أنت لا تعرف كيف تشرب يا رجل. لعنه صاحب البيت ثم أضاف: يبدو أنّ رأسك قد أصبح خفيفاً لا يليق إلا بشارب ماء! وكمن ضرب بالحزاء، هبّ صانع الطعام واقفاً ليدافع عن نفسه، شدّ نفساً عظيماً من السجارة التي تتدلّى من بين

شفتيه، فصارت مقدمتها كقاذفة لهب صغيرة. ومن ثم أرسل لعناته للرجل: أنا يا ابن الكلب؟ أنا تقول أنّ رأسي خفيفاً؟ عارٌ عليك يا رجل. بدا في قمة الغضب، فصار مستعداً للشجار، ولكن هذا لم يمنع صاحب البيت من التأكيد: نعم فأنا أراك قد صرت تتأرجح في مكانك مثل الغصن الهزيل.

أنا؟

لا، بل أُمي!

من هو آخر شخص قال لك كس أمك؟

من الأخطاء الفادحة أنْ تقول لرجلٍ سوداني أنك لا تعرف أنْ تشرب أو أنت لا تحتمل الشرب، ولكن أكثرها فداحةً أنْ تخبره بأنه ثمل وعليه أنْ ينصرف عن الخمر. صاح صانع الطعام هائجاً، لهذا لم تكن لعناته مفهومةً في سياقها اللغويّ الصريح. أخذ يبرطم حرفياً، وطلب كأساً، فلم يأبه أحد، فخطف الزجاجة وأفرغها في جوفه، فجحظت عيناه حتى بان بياضهما، فسقط على الكرسي كالحجر. فخرّ أشرع في عزفٍ منفرد، حتى صاحت معدته: توقف يا ابن الكلب سأتمزق لو لم تتوقف عن القي!

فحسدوه على سقطته، فهم لمثل هذا اليوم كانوا يعملون.

نام.

بعد أنْ فرغوا من العشاء، أكتشف أنّ عليه أنْ يدافع عن نفسه، إذ لم تكفه المحاولة الأولى، فانبرى مهاجماً وهو يشير بسبابته إلى البروف: أقسم أنك لا تعرف شيئاً يا رجل. نظر

إليه البروف متعجّباً وهمّ بسؤاله، إلا أنه واصل هجومه: أخبرتني جدّتي فليرحمها الله أنها كانت صاحبة إندايـة شهيرة في أيام الإنجليز، سقى الله تلك الأيام بالغمام، الكثيرون لا يعرفوا معنى هذا الاسم، ولكن دعنا نسمّيها حانة شعبية يا رجل. لهذا لا أتوقع أنْ يكون أحدكم قد سمع بجدّتي في الأساس. ولكنها وللفخر، كانت من ضمن الذين وضعوا القواعد العشر للإندايات. هل تخالها مثل أولئك النسوة اللائي تعرفهن؟ قطعاً لا يا رجل. لقد صرن شرِهات لئيمات لا يكسبن حلالاً اللعنة عليهن وما كسبت أياديهن. دعني أؤكد لك أنّ قانون حمورابي في سنة ١٧٥٠ ق.م قد تضمن فقرةً تندّد بالبيوت التي تبيع الجعّة الضعيفة والمرتفعة الثمن. هيا أخبروني، ما هي هذه القواعد؟ بالطبع لا تعرفونها أيها الحثالة، ولكني لن أبخل عليكم بالعلم، لقد لعن الله من يبخل على الناس بعلمه، وأنا لست عالمٌ جاحد ولا ذو عظمةٍ حاسد.

وهنا سأله البروف مباشرة: أخبرنا عن تلك القواعد العشر، ويجب أنْ تعلم أنّ كؤوسنا لم تزل فارغة. بحث عن سجائره، وعندما لم يجده طلب التمباك، وحشر سفّة كبيرة في فمه وقال والبصاق يتناثر من فمه: أول هذه القواعد يا أختي، لا تجلس جوار باب الإندايـة، وفي هذا حكمة يا رجل، لأنّ الجلوس جوار الباب يجعلك تقع في شرّ الهجوم المباغت، فأنت لن تأمن الشرطة والأشرار.

القاعدة الثانية: اجلس فوق سرْجك، إذا لم تفعل فقد يدّعي أحد السكارى أنّ السّرج ملكه، فتصير مشكلة فتقع في مخاطرة عظيمة.

القاعـدة الثالثـة أيهـا الأغبيـاء: أجعـل ظهـرك دائمـاً إلى الحائـط، لا بـدّ أنْ تحمـي ظهـرك أيهـا المغفـل، فالشـجار قـد ينشـب في أي لحظـة أنْ تصفـع عـلى وجهـك خـيرٌ مـن أنْ تـركل في مؤخرتـك.

القاعـدة الرابعـة: أحـرص عـلى أنْ يكـون عُـكّازك فـوق رجليـك، كـن مسـتعداً للدفـاع عـن نفسـك. القاعـدة الخامسـة: لا تخلـع نعليـك أبـداً، وهـذا مـا لا يجعلـك مسـتعداً للركـض، فلسـت تجلس بالـوادي المقـدس طـوى.

القاعـدة العـاشرة: لا تغفـل عـن حـمارك، فهـو الـذي يعيـدك إلى البيـت بعـد أنْ تسـكر، الحـمار يعـرف الطريـق إلى البيـت، وإنْ كنـت لا أشـكّ أنـه سـيأخذكم إلى الزريبـة مبـاشرةً حيـث تنتمـون. يقاطعـه صاحـب البيـت ضاحـكاً: ألم أقـل لـك مـن قبـل؟ هـا أنـت قـد قفـزت مـن القاعـدة الخامسـة إلى العـاشرة مبـاشرةً، بربـك أيـن بقيـة القواعـد؟ يتلفّـت صانـع الطعـام في حـيرة، فيؤمـن الأعمـى عـلى صـدق كلام صاحـب البيـت. فيتمتـم في سرّه يحـصي القواعـد، فـما يلبـث أنْ يواصـل محرجـاً: نعـم نعـم، سـبحان مـن لا يسـهو، ألا تفهـم؟ السـهو مـن صفـات الصالحـين. دعونـا يـا جهلـة مـن الترتيـب، ولكنـي نسـيت أربـع قواعـد، وهـي: لا تقسّـم الـشراب أبـداً، فلـن يثـق أحدهـم في قسـمتك مهـما حاولـت أنْ تكـون عـادلاً.

القاعـدة الأخـرى: لا تفـوِّت كأسـك مهـما حـدث، بإمكانـك أنْ تغسـل بـه وجهـك، لـو فعلـت هـذا سـتعتبر ضعيفـاً، وهـذا قـد يعرّضـك إلى الخطـر الماحـق. أمـا القاعـدة الأخـيرة أيهـا الحثالـة: لا تتحـدّث كثـيراً، وهـا أنتـم لا تفتـون تثرثـروا كالمومسـات طـوال

الليل وتتجاهلوا هذه التشريعات. ولعلمكم، كل الأغبياء الذين تجاهلوا هذه القواعد، تعرضوا لمشاكل كبيرة، وبعضهم فقد حياته.

صمت وأخذ ينظر إليهم متفاخراً، وكأنه ألقى للتو محاضرة عظيمة في علم الفلك، ولكن البروف ألقى في وجهه ماءً بارداً حين قال له ساخراً: القاعدة الأكثر أهمية من كل ما ذكرت: لا توجّه حديثاً إلى الشخص الخطأ، لستُ من عايَرَك بالسُكر! أنت عكس الناس جميعاً، تسكر أولاً، فتثمل وبعد ذلك تنتشي. تمدح في جدّتك وكأنها كانت زينب بنت بيلا. رمقه صانع الطعام بنظرةٍ حانقة متسائلة قبل أنْ يهتف: السكر؟ تهمةٌ لا أنكرها وشرفٌ لا أدعيه، ولكن من تقصد؟ فأضاف البروف: لم تسمع بها، ألست محقّاً؟ لو كانت جدّتك حيّة لسمعت عنها الكثير، ولكن ما يتردّد حولها بعض الأحاديث التي تذكر أنها كانت صاحبة إندايات وقوّادة. ليقاطعه صانع الطعام غاضباً: أرجو أنْ تحترمني، جدّتي كانت امرأة شريفة لم تصنع سوى المريسة. يواصل البروف غير آبها: بعد زوال دولة المهدية تبرأت أسرة زينب بنت بيلا منها، لما جلبته لهم من عار بعلاقاتها الواسعة مع الإنجليز، لمع نجم بنت بيلا وذاع صيتها، وكان زبائنها من الإنجليز والأعيان وكبار التجار، فامتلكت العديد من البيوت في العهد الجديد، وأصبحت من كبار الأثرياء في البلاد، بل هي أول سودانية تمتلك سيارة خاصة، حتى أنها طلبت توظيف سائقاً إنجليزياً، الأمر الذي لم توافق عليه الحكومة، لهذا قامت بتوظيف سائقاً مصرياً. لهذا لا مقارنة بينها وبين جدّتك، ومع العلم، أنها تابت في آخر حياتها، ووهبت معظم أملاكها

للدولة، فصارت أوقافاً يستفيد منها كل الناس. لهذا لا تقارنها بجدّتك يا صديقي، فما كانت تمتلكه من الذهب فقط، ربما كان يفوق وزن جدّتك، وحسبما سمعت منك، كانت جدّتك تستضيف السوقة والدهماء، أما بنت بيلا، فاستضافت عظماء وفنانين مثل أم كلثوم وعبد الحليم حافظ. شعر صانع الطعام بالإهانة، وكأنه سُلب مكانةً مرموقة يفخر بها. فانفجر لاعناً: تدافع عنها يا بروف وكأنها أمك. فردّ عليه ساخراً: وأنت تدافع عن جدّتك وكأنها أمّ المؤمنين!

صاح الأعمى: لا عجب أنها ماتت مفلسة.

يكفي أنها كانت غنية طوال حياتها، وكما يقولون: المال إما داية يا شيخة إندايـة!

* * *

لاذوا إلى الصمت، ويا لها من لعنةٍ رحيمةٍ تحلّ على ألسنة السكارى المتخمين بالهراء. أصبح البيت عتيقاً كحانة أسكوتلنديّة قديمة مغلقة منذ افتتاح حانة القلب الأبيض. تراصصت أجسادهم كبراميل البلوط القديمة التي يحفظ فيها النبيذ في الأقبية الرطبة. وجوهٌ كلاسيكيةٌ متعبة كسنابل الشعير في قلب الرّيح الهائجة، تنتفها كما تنتف المعصية لحية الشيخ الكاذب. أجسادٌ متعرّقة كجرار المريسة الجديدة. الهنيهة التي يسرقها اللاوعي من عيونهم، تتراقص فيها الحكايات القديمة اللا نهائية. تختمر أجسادهم مثل عجين الذرة في عتمة الأقبية الرطبة. العالم إلى زوال كما سمعوا. ربما تحتلّ هذه

الفايروسات اللعينة كلّ ذرة أكسجين في الأيام المقبلة. وحوشٌ لا مرئية غاضبة تحتلّ الهواء، تلتصقُ بالملابس، مقابض الأبواب، تبصقها الريح في عيون الناس وأفواههم وآذانهم. يختنقوا في صمت. فهي تجعلك عاجزاً عن مجرد التعبير بالصراخ، العزاء الوحيد أنّ دموعك ستبلّل وجهك، ملابسك، ومن ثمّ تجفّ رويداً رويدا، وتتسلّل من جسدك الروح وتمضي نحو فراغها الأخير. من أين أتت هذه الكائنات اللا مرئية الشريرة؟

من أطلقها؟

أين توالدت؟

هل لديها أقوالٌ أخرى؟

وبهذه الطريقة، قرروا أنْ يحتسوا كلّ ما تبقى لديهم من خمر. ربما لعلمهم أنّ الصلاة يوم القيامة، عبارة عن رياضة يائسة لجسدٍ متخم بالخطايا، ينبغي على الشخص الفاهم جيداً ألا يبدّد وقته فيها. وهكذا قرروا أنْ يلعبوا ذات دور الإله رع القديم، ويكرروا نفس حيلته الماكرة للحيلولة دون هلاك البشرية. لأنّ الإلهة المبجلة حتحور، قررت لسببٍ أحمق لا نعلمه، القضاء على البشر أجمعين. فقرر ربّ الأرباب رع، أنْ يرمي بسهمه الأخير، عسى ولعل أنْ يفلح الأمر. وبالفعل وضع سبعة آلاف جرّة مملوءةً بالجعة الطيبة، في طريق الإلهة الغاضبة حتحور، عسى ولعل أنْ ترضى نفسها وتصفح. وعندما وجدتها، شربت وابتهجت روحها الشريرة المنتقمة، وعندها قررت أنْ تنسى الموضوع تماماً، فنجا العالم من الهلاك. رفع البروف كأسه: وحياة هذه النعمة، أننا هالكون، ولكني أضمن

لكم لن يقتلنا الهمّ أبداً. دفق الكأس جرعةً واحدة في فمه على غير عادته، رمقه صانع الطعام بدهشة، أضاف: حين تفتح زجاجتك الأخيرة، من الغباء الإعتدال في الشرب!

من الحكمة أنْ يقفلوا الباب في وجه الأخبار. كلها لا تسر. البشر خائفون من ضياع دنيا لم يفعلوا شيئاً إلا التفاني في القضاء عليها ما استطاعوا. المكان والزمان، بين بين. والحياد متطرّفٌ لا تفهم نواياه! حسناً: ديكور باهت مقيت، لوحات مبتذلة خلفك، جهاز تلفزيون لا يجرؤ أحد على تشغيله لقدرته على بث الهلع لا التسلية، منفضة سجائر متخمة. بقايا طعام متعفنة. مناديل عطس عليها وتمخط قوم عاد وإرم ذات العماد. وبغض النظر عن أي أثر كحولي يظل شاهداً على تلك اللحظة التي حشد فيها العالم قبحه، ستكتشف أنك لا تقوى على السير في صراطٍ مستقيم. في الواقع أنك لن تجد هذا السراط المستقيم لو مشيت لألف عام.

قرروا بعد أنْ حاصرتهم الأخبار السيئة، أنْ لا يسمعوها فحسب. الشرّ كله في الإنصات. ما يجعل الرصاص مخيفاً هو صوته. لهذا تمّ نزع سلك الكهرباء عن جهاز التلفزيون تماماً. لحسن الحظ أنّ خدمة الإنترنيت متوقفة تماماً. آخر ما سمعوه، أنّ هنالك عطلاً في إحدى الكوابل البحرية، ولا أحد يجرؤ على الخروج لتصليحه. إنها الحرب إذن. بل هي أشرس حروب البشر القادمة، أخشى ألا تذكرها كتب التأريخ. لأنّ التأريخ سيغلق صفحاته فور انتهاءها بموت جميع البشر.

* * *

طُرق الباب، فتلفّتوا للحظات مذعورين، قبل أنْ يطرح السؤال جماعياً: هل تنتظرون زائراً يا جماعة؟ في ظروفٍ مشابهة، لا أحد منهم لديه الرغبة في التواصل مع العالم الخارجي، ناهيك عن تلقّي الزيارات المفاجئة. لم يتحرّك أحد من مكانه، إذ لم يتبرّع أحد بمهمةٍ شاقةٍ مثل فتح الباب، فأخذ الزائر يطرق الباب عدة مرات متتاليات. لهذا السبب نهض صانع الطعام متثاقلاً ومضي لكي يفتح الباب، وعندما وصله كان الباب قد فُتح تماماً. دارت عينيه في محجريهما تطبخان الأسئلة، فما نضجت أبداً. ولكن السيدة ذات العينان المجنونتان صارت في داخل الشقة فعلياً، تتلقّف عواء صمتهم وهي تتلفّت بحيْرةٍ شديدة: انتظرت كثيراً لكي تفتحوا الباب، ولهذا استخدمت مفتاحي الخاص، ألا تدعونني إلى الجلوس أيضاً؟

أفسح لها صاحب البيت مرحباً، والصحيح مُتمتِماً، فسؤاله اليتيم الحائر: كيف عرفت هذه السيدة المكان، ومن أعطاها نسخةً من المفاتيح؟ وبالتالي ذهبت العيون بإتجاه البروف، فهو من أحضرها في المرة الأولى، لهذا السبب هو مسؤولٌ أيضاً بلا شكّ عن هذه المرة. لكي يبعد نفسه عن هذا الحرج، بادر بالسؤال: كيف جئتِ إلى هنا؟ بدت في عينيها دهشة خفيفة، ولكنها قالت: أتيتُ بسيارتي، ما هذا السؤال الغريب؟ وبالطبع كانت إجابتها غير مبرئة لساحة البروف الذي شعر بحصار عيون الجميع، فقرّر أنْ يخبرهم بشكلٍ مباشر أنه غير مسؤول عن حضورها. ولكنها ذكرت ملاحظة مهينة: ألا تعيشوا إلا في

القـذارة؟ هـذه الشـقة حـين جئتـم إليهـا في المـرة الأولى لم تكـن بمثـل هـذا السـوء. بذكرهـا لهـذه الملاحظـة، لم يشـكّك أحـد في إنهـا تقصـد أنهـم بالفعـل عندمـا سـكنوا في الشـقة، تسـلموها نظيفـة، هـذا أمـرٌ يسـهل تخمينـه، ولكـن كيـف علمـت بأمرهـا؟ كلّ هذا لا يهـم في الوقـت الحـالي، ولكـن صـار النـاس يخشـون الاقـتراب مـن الغربـاء. أي أشـخاص تلاقيهـم بعـد انتشـار هـذا الوبـاء المعـدي، يسـتحق أنْ يطلـق عليهـم لفـظ الغربـاء. ونتيجـة لذلـك، فهـذه السـيدة ليـس مرحبـاً بهـا، بـل عليهـا أنْ تغـادر في أقـرب وقـت. عـلى أنْ يكـون الآن!

عندمـا سـألك الـبروف كيـف جئـتِ إلى الشـقة، فقـد كان يقصـد أنْ يقـول، كيـف عرفـتِ عنوانهـا؟ أو مـن أخـبركِ عـن أمرهـا؟ بالتأكيـد لم يتوقـع أحـد أنْ تـردّ عـلى هـذا السـؤال، بـأنْ ظلّـت فاغـرة فاههـا لعـدة ثـوان. هـذه الثـواني كانـت كافيـة لـكي تعتـبر حماقـة وقلـة ذوق، الأمـر الـذي يسـتوجب طردهـا مـن البيـت. هيا غـادري الآن، كـما تـري فلسـنا نرحـب بـك هنـا. صـاح صاحـب البيـت غاضبـاً. وبالفعـل تعاملـت هـي الأخـرى، مـع الموضـوع بصفاقـة مربكـة حـين أطلقـت قهقهـة سـاخرة: هـل لي أنْ أعـرف مـاذا تعاطيتـم من المخـدرات حتـى تـردّدوا مثـل هـذا الهـراء؟ زاد الأمـر عـن قدرتهـم عـلى تحمّـل هـذه الصفاقـة مـن جانبهـا. مخـدرات؟ أبلغـت بـك الوقاحـة يـا امـرأة؟ قالـت محافظـة عـلى أكـبر قـدر مـن السـخرية: لسـت مـن يسـتحق أنْ يوصـف بالوقاحـة في بيتـه! صـاح صاحـب البيـت: طلبـت منـك المغـادرة فلـم تفعـلي، أرجـوك غـادري وكفِّـي عـن ترديـد هـذه التفاهـات. طفـح كيلهـا فتخلّـت عـن هدوئهـا دفعـةً واحـدة وقالـت موجهـة حديثهـا لـه: هـل جننـت يـا رجـل؟

أنا لا أفهم حقاً! هل دمّر هذا الفايروس اللعين عقلك أم أنك تتعاطى شيئاً لا أعرفه؟ تدخّل البروف مستفسراً: هل لديك ما تخفينه عنا؟ قالت: هذا المعتوه حين طردته والدته من البيت، هاتفني وكان غائباً عن الوعي، ذهبت وأخذته معي عائدين إلى هذه الشقة، أعطيته المفتاح وأخبرته أنْ يعتبرها مثل بيته، لأنني لا أحتاجها فعلياً. أخذت تتطلّع فيهم غير مصدقة أنهم لا يعلموا هذه الحكاية. حملق صاحب البيت في نقطةٍ بعيدة، سألها البروف مجدداً: أيعقل هذا؟ كيف كانت حالته حين أحضرته؟ ردت: ليس هناك جديدٌ إنْ قلت أنه كان ثملاً، ولكني لم أكن أعلم أنه ثملٌ إلى هذه الدرجة المنحطة من الغيبوبة. صمتت ثم أضافت سائلة: ألم تسألوا عن صاحب البيت؟ هل أخبركم أنه قد استئجره مثلاً؟ أجابها البروف: لم يسبق لي سؤاله، لا أدري عن الآخرين. فنظر في وجوههم، فكانت الإجابات نافية بشكلٍ قاطع.

إذن الأمر لا يعدو سوى غيبوبة وحسب.

جديرٌ بالاحترام هذا الغياب. هذا التجاوز المبهر للوعي الجائر، القدرة الكاملة على إدارة الظهر لكلّ ترهات العالم. هذا الأصبع الأوسط الممدود إلى هذا الكوكب، جديرٌ بالاحترام. فلنطل عمر موتنا، فالحياة تستحق أنْ يأتي الموت بشكلٍ غير تقليديّ، خلاف ما تعوّدنا عليه دائماً.

ممتنون هم لتجاوز الأسى، للعبور، للقفز المرِح فوق حواجز المأساة. كلّ من يرفع قدحه، ستنبت تحته سنبلة، كلّ من يصنع نخباً، سترقص في الأعلى أغنية، تهدهدهم وتسرق من

أرواحهم لعنات الحضور. غائبون، حاضرون دائماً لحشد الأرواح النشوانة وغير النشوانة. حاضرون تطيش من أحداقهم سهام الوجع، أو أنها أجّلت حضورها من فرطِ ما احتست من دموع، هناك عند حافة جسر البكاء. هل بوسعهم أكثر من ذلك؟ لهم الحق ألا يقرّروا شيئاً، أي بإمكانهم أنْ يعتبروا غيابهم إجماعاً سكوتيّاً. هذا حقٌّ يكفله لهم الصمت. فما حديثك في غير أوانه إلا مقدّمٌ تدفعه لوقتٍ آخر تكون فيه مجبراً على الصمت. الحقّ ما قاله صمويل بيكيت: «أنت على الأرض ولا يوجد علاج لذلك».

* * *

«ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، بل امتلئوا بالروح».

رسالة بوليس إلى أهل أفسس

تغيّرٌ كبيرٌ طرأ على ملامح البروف الطاعن في السن، ربما أكتشف جسده أنّ عمره قد تجاوز الستين، فقرر خذلانه في معركة العمر، وبهذه الطريقة البشعة، يعلم البشر أنّ الخلود قضيّةً لا يربحها العمر. أحدودب ظهره وبهتت ملامحه، وبدا وكأنه لم يأكل منذ سنوات. أطرق ساهماً، ولكنه قال دون أنْ يرفع رأسه: لم أسافر كثيراً، في الواقع لم أسافر سوى مرة واحدة، كانت إلى القاهرة منذ سنوات طويلة حين كنت شاباً. في ذلك الوقت كانت القاهرة، ليست كتلك التي نسمع عنها

في السنوات الأخيرة، بعد أنْ نمت على وجهها اللحى الوهابية البغيضة. ليس عليكم أنْ تتخيلوا فداحة ما حدث، فهو فوق تصوّركم، حسناً يا سادة، ولكن بوسعكم أنْ تتخيّلوا، فالخيال مطيّة المعرفة، هل تعلموا أنّ إعلانات التلفزيون والملصقات في الشوارع وأبواب المتاجر كانت توصف البيرة بمشروب الأسرة السعيدة؟

أنزوت الأصوات في مغاراتها المبهمة، وما عاد هناك سوى الترقّب. الترقّب الفارغ من كل شيء عدا شراهة الأسئلة النهمة. لا بدّ أنكم أعتقدتم أنني سافرت إلى مصر لأعربد فيها. قال البروف وهو يرمقهم بنظرةٍ فارغة. قطعاً لا، لم تكن بلداً فاسقة ولا متزمّتة، بل كانت معتدلة، سافرت إليها لكي أُلبي أمر والدي، لأنه أراد أنْ أدرس الشريعة في الأزهر الشريف. وبالفعل ذهبت مع أربعة شباب في مثل عمري، أظنكم تعرفونهم جميعاً، ولكن دعونا نتجاوزهم فأنا لا أحبّ الخوض في سيرتهم، وهم أصلاً لا يردّون على تحيتي. سأله الأعمى: هل أشتريت الخمر من المطار فور وصولك؟ لم يسبق لي السفر بالطائرة حتى أعرف، ولكني سمعت من بعض الناس أنها أرخص وأجود. ابتسم البروف وقال مواصلاً: لقد سافرت بالقطار إلى حلفا ومن ثم استقللت الباخرة، ولكن أول مرة أتذوق فيها طعم الخمر، كان في بار الشيخ علي في إسكندرية وليس القاهرة! أخذ يراقب ارتسام علامات العجب في وجوه الرّفاق، ولكنها

كانت علامات بلاهة إنْ شئنا الدقّة، أكثر من كونها تشير إلى العجب. أضاف: نعم كما سمعتم كان ذلك في بار الشيخ علي! قهقه الأعمى وصفّق بيديه متعجّباً: يا رجل ما هذا الكلام العجيب؟ كما نعرف جميعنا أنّ الشيخ وظيفته محددة، وهي أنْ يحدّث الناس عن الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنت تقول أنّ شيخ المصريين يبيع الخمر! هذا كلامٌ لا يدخل العقل يا رجل، أرجو من السائق أنْ يتجاوزك في الكأس القادمة. تناول البروف جرعة ماء قبل أنْ يحتسي ما تبقى من شرابه وقال: بعد أيام قلائل من وصولنا إلى القاهرة، قررت زيارة مدينة إسكندرية، ركبت القطار المجري من محطة رمسيس، فوصلت حوالي الساعة العاشرة صباحاً. كان الطقس جميلٌ بما يكفي للشمس تصحيح أخطائها السابقة. غمرتني نسمات بحرية منعشة، فكانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها البحر، فتذوّقت ماؤه المالح كذلك، وكان هذا أغبى قرار أقدمت عليه. تجوّلت على الشاطئ قليلاً، ثم ذهبت في جولةٍ قصيرة، حيث قرر سائق تاكسي لعين أنْ يأخذني إلى الأنفوشي ومن ثم إلى سوق زنقة الستات وبعض الأماكن الأخرى التي كان يرى أنّ زيارتها مهمة.

شعرت بالجوع بعد لسعة البرد التي تعرّضت لها، فاقترح عليّ سائق التاكسي أنْ نذهب إلى حانوت أسماك صغير في حارة خلفيّة لم أعد أعرف اسمها. وهناك أكتشفت أنّ الحانوت

ملكه، ولكنه تقبّل دعوتي لمشاركتي الطعام بكل رحابة صدر، وإنْ كانت الأسعار مقبولة. تناولنا طعامنا، وبعد كوب الشاي الكُشري الساخن، سألني السائق إنْ كنت من أصحاب المزاج، فهناك حانة شهيرة تقع على مقربة، يطلق عليها بار الشيخ علي، فقررت المجازفة بزيارتها خصوصاً أنّ آخر وصايا والدي، أو فلنطلق عليها تحذيراته، كانت بضرورة تجنّب الخمّارات في السر والعلن، أما السبب الأهم، فقد كان الفضول فقط.

لم يكن المشوار بعيداً إلى شارع اسمه شارع أديب بيك إسحق حيث توجد حانة الشيخ علي. هتف صانع الطعام وقد ظهرت على وجهه البهجة: المصريون ناس ملاعين كما ظننت دائماً، ولكن حياتهم مبهجة. ردّ البروف: الأمر لا يتعلّق بالمفسدة أو الصلاح، هذا موروثٌ شعبيٌّ قديم، خذ مثلاً أنّ العمّال الذين بنوا الأهرامات عن طريق السُّخرة، كانوا لا يعطونهم مقابلاً نقدياً نظير عملهم سوى الخبز والجعة، وهي مشروبٌ قديمٌ كما وجد في المخطوطات ورسومات المعابد منذ عهود إيزيس. وكما نعلم يا صديقي، حسب تقاليد أهلك، المريسة ليست شيئاً منكوراً، أليس هذا صحيحاً؟ ازدادت حماسة صانع الطعام فأضاف: بالفعل، لوقتٍ قريب لم نكن نعلم أنها محرّمة، فهي إرثٌ خاص بنا، عليهم اللعنة فقد حرّموا علينا ألطف وجبة غذائية تحصل عليها يوماً. وبهذه الطريقة فقدوا احترامنا إلى الأبد.

أومأ البروف برأسه موافقاً، فاستحثه الأعمى على مواصلة الحكاية: دعنا نعود إلى حكاية بار الشيخ علي. عاد الصمت بعد قول البروف: توجد أنواع أخرى من المريسة، سأخبرك عنها لاحقاً بالتفصيل، ولكن لعلمكم أيها السادة، الحانة كان يملكها ثلاث أشخاص، إغريقيان و شريكهم الآخر فرنسيّ، هم أيضاً مؤسسوها، وكان اسمها حانة كاب دور، وفي الستّينيات اشتراها منهم رجلٌ مصريّ، وحافظ على نشاطها المعروف لروّادها في بيع الخمر والجعة. ولكنه كان رجلاً متديّناً كما عرفت. صاح الأعمى: إلى أي درجة؟ ابتسم البروف: إلى درجة أنه كان يقوم بإغلاقها في أيام الجمعة، فهو حسب إعتقاده، يوم الجمعة من الأيام المباركة التي لا يجوز فيها بيع الخمر. ربما كان يحسّ بالذنب ولو بشكلٍ مؤقت، وربما يكون مثله مثل ملايين من الناس، يكثرون من الخطايا طوال العام، وعندما يحين شهر رمضان، يتحوّلون إلى وعّاظ مباركين، شريطة أنْ يتجاوز الله سيئاتهم التي ارتكبوها في العام بأكمله، فتصبح سجلاتهم نظيفة جاهزة لاستقبال خطايا العام الجديد. صاح الأعمى ببهجة: كلنا نعلم أنّ الإيمان مجرّد مضادٌ للفايروسات لا أكثر.

بهذه الطريقة أصبح الناس يطلقوا على المكان اسم بار الشيخ علي، المصريون لذيذون كما تعلموا. استقلّ صانع الطعام فرصة أنه توقف عن الحكي ليسأله: لقد ذكرت أنّ المريسة

ليست حِكراً لنا وحدنا، هل تقصد أنّ المصريين يصنعوها أيضاً؟ التفتّ إليه البروف ورد: بالفعل لديهم مشروبٌ مشابهٌ اسمه البوظة، وهي خمرٌ تصنع من مزيج الشعير والخبز والخميرة وملح الليمون، يخلط المزيج جيداً، ثم يترك ليتخمّر، وقد يستغرق هذا يومان حتى تنضج. وحتى لا تسألني، نعم تذوّقتها بعد ذلك في حانةٍ شعبيةٍ تافهة في حي باب الخلق في القاهرة، حيث كانت الحانة مكتظة بالباعة الجوالين، اللصوص، المدمنون وبعض أصحاب المهن اليدوية الفقراء. تعجّب صانع الطعام ولكنه صمت ينتظر إجابة سؤال الأعمى للبروف: لا بدّ أنك كنت السوداني الوحيد في ذلك المكان. حين ينتصف ليل في القاهرة، لا تجد في الشوارع إلا السودانيين والكلاب! رد البروف ساخراً قبل أنْ يواصل: على العموم يا رجل، جلست في بار الشيخ علي، وأصرّ السائق على أنْ أشرب بيرة من نوع يطلق عليه إستيلا، حيث قال أنها جيدة، تفيد الكلى، تداوي هشاشة العظام، تدرّ البول الفاسد وتحتوي على الأملاح التي يحتاجها جسم الإنسان، كما أذهلني حين ذكر أنّ بيرة إستيلا الإسكندرانية مُدرّةً للبن، لهذا السبب ينصح بها للسيدات المرضعات، لا شكّ أنه كاذبٌ، هل يعقل أنْ لا يسكر الأطفال حين يشربون الحليب بعد ذلك؟ كان روّاد بار الشيخ علي محترمون كما ظننت، يجلسوا إلى طاولاتهم وهم يرتدون بِذات جميلة، وبعضهم يضع الطرابيش الحمراء الزاهية، وكان مزاجهم طيباً بالفعل، ولا يتوقفوا عن الغناء وإلقاء النكات.

بـدأتُ في الـشرب بحـذر، وكـما نعلـم جميعـاً، حـين تفتـح الزجاجـة مـن الغبـاء التحـدث عـن الاعتـدال في الـشرب. ولأنهـا كانـت المـرة الأولى، لم اسـتطع تمييـز الشـعور الـذي أحسسـت بـه وقتهـا، كلـما اسـتطيع قولـه أننـي قلـت: يـا لـلأسى، لسـت متأكـد، أمُنتـشٍ أنـا، أم قلبـي يهـذي؟ جعلـت أشرب وأقزقِـز بالترمـس والجبنـة الهريـش اللذيـذة، وأظننـي أكـثرت مـن تنـاول هـذه المقبـلات دون طلـب المزيـد مـن البـيرة، فظـنّ النـادل أننـي مـا جئـت إلا للعشـاء. ولكـن الزجاجـة الثانيـة والباقيـات الصالحـات، فقـد شربتهـن سريعـاً كـما أظـن.

ولكن كيف صارت الأمور بالنسبة للدراسة فيما بعد؟

في أحـد الأيـام أشـتمّ فيّ مسـاعد تدريـس رائحـة الخمـر، فأخبرتـه إنهـا رائحـة خاصـة بنـا كسـودانيين! وأتذكـر عندمـا كنـا في البلـد هنـاك في الشـمالية، وتكـون هنالـك مناسـبة عـرس قادمـة، كنـا نحقـن ثمـار القريـب فـروت والبرتقـال بالخمـيرة السـائلة قبـل العـرس بعـدة أيـام، وهـي لم تـزل تتـدلى مـن أغصـان الشـجرة، وبعـد أيـام تترنّـح الثمـرات الشـهيات المحقونـات في أغصانهـا، وبعد ذلـك نقطتفهـا، فنعصرهـا وننتـشي، ومـن ميـزة هـذا العصـير، لا تفـوح منـه تلـك الرائحـة المميـزة للخمـر. هـل تعلـم أنـك تسـتطيع أنْ تصـلي العشـاء حـاضراً دون أنْ ينتبـه لـك أحـد؟

أجاب صاحب البيت: هذا إذا تمكنت من الوقوف أصلاً!

ضحكوا بفجورِ غانية التهمتها عيون الزبائن.

بـدأ الأعمـى يدنـدن بصوتـه الأجـش، فقـال صانـع الطعـام متبرّمـاً: إنْ كنـت مُـصرّاً عـلى الغنـاء، فلـن أحتمـل غـير قصيـدة الشـاعر محمـد محمـد عـلي. انصـاع الأعمـى تفعـالى الصـوت الـذي لا ينسـجم مـع جـمال عـزف آلـة العـود، فضـاع لحسـن الحـظ في زحمـة الأصـوات وسـوء الاسـتماع.

همساتٌ من ضميرِ الغيب تشجى مسمعى

وخيالاتُ الأمانى رفرفت فى مضجعى

وأنا بين ضلوعى لا أعى

عربدت بى هاجسات الشوق إذ طال النوى

وتوالت ذكرياتى عطرات بالهوى

كان لى فى عالم الغيب غرام وانطوى

كان لى فى الأمس أحلام وشوق وحبيب

كان للجرح طبيب لا يدانيه طبيب

كان ما كان وبتنا كلنا ناءٍ غريب

هـل أخبرتكـم أنّ الـبروف لم يكـن يطيـق أنْ يسـمع صـوت الأعمـى وهـو يغنـي أغنيـات الإمـام الأعظـم أبـو داؤود بالتحديـد؟ لم يكـن موافقـاً عـلى هـذا الإقـتراح المتهـوّر، لهـذا أغمـض عينيـه تمامـاً،

فهو يعتقد أنه بهذه الحيلة الغريبة، يستطيع أنْ يصنع حاجزاً سماعياً ما بين الموسيقى الجميلة، والصوت البشريّ البشع الذي تتغوّطه حنجرة الأعمى، فهو بذلك يسمع دندنات أوتار العود فقط. وبالطبع لم يكن يعتبر صوت صديقه الأعمى يصنّف من ضمن أصوات الناس. يستطيع كما يزعم، أنْ يسمع صوت أوتار العود، فيدخل أذنيه ما ينفعهما، وأما الزبد فيذهب جفاء. الأعمى بملعنةٍ طريفة، يتعمّد إغضابه بترديد هذه المحظورات، فيبتسم البروف ويحدثه عن الإمام الأعظم، كما يحلو له وصفه.

هذا الرجل تسمعه، فتتخيّل أنّ هناك صهباء فاتنة تنتظره حاسرةً لرأسها، في أُبّهة تبرّجها، خالية الوفاض إلا من ثمالةٍ تتلفحها كمئزرٍ وتغيب كتمام الحلم. طرقعة أكواب مترعات لم يحملها ولدانٌ مخلدون، وأخرى خاوية على عروش الانتظار، تتململ على مرمى ساقٍ عجول الكؤوس. هاتها يا ساق وبلّغنا عليائها، أتركنا في سؤددِ لوعاتنا وتوقنا الشبق. أنظر أو لا تنظر. ستخترق أنفك رائحة غناء طازج. الكؤوس تضطرب، والنفوس تضطرب، والأنفاس بالأمنِ والأمانِ تحترب، قبل أنْ تصير إلى طربٍ ألفوهُ، فأصبح مبتغاهم في جلستهم إليه. العوّاد برعي بكامل أناقته هناك. برعي والريشة على وفاقٍ تام ينعكس ذلك في أناقةٍ مفرطة تبدو عليه. كمنجة وعود وعلبة كبريت. الآذان تحتشد يا صاح؛ فهل أنت معي؟ لماذا تبدو مغيباً تائه الفكر ساه؟

الإمـام يدنـدن عـلى طريقـة مـن لا يخافـك ولا يرحمنـا . والقـوم سـكارى ومـا هـم بسـكارى، ولكـن ذهبـت بعقولهـم صهبـاء الطـرب والقـت بهـم في غياهـب الحنجـرة العميقـة؛ التـي لم تبلغهـا حفرياتنـا الغنائيـة بعـد. هـل أنـت معـي يـا صـاح؟

تنسـكب في قلـوب الجميـع لوعـة مشـتهاه. يتجـاوزوا نزقهـا مجبريـن، فهـم يعلمـوا تمـام العلـم، أنهـم لـو ركضـوا خلـف نداءهـا الخفـي. إذن لأرتحلـت قوافـل الأيـام تطـوي الليـالي خببـاً. بالضبـط كـما غنـى: عندمـا تغفـو الأزاهـر في الرُّبـا .. النسـيم الحلـو يهفـو طربـا .. والنُدامـى يسـكبون العنبـا .. يرشـفون الـكأس حببـاً حببـا.

يـصرخ: الله يـا داؤوود! وسـاعتها يكـون قـد فـرغ وامتـلأ. وبالـكاد يسـتطيع أنْ يقـاوم رغبتـه في تمزيـق قميصـه. يقـترب مـن الأعمـى: لـو كان هنالـك عطـاءًا بـلا حـدود، فهـذا الرجـل قـد حـاز أجـر المناولـة.

هـذا كلـما أتذكـره مـن تلـك الليلـة أيهـا السـادة، الله وحـده يعلـم كيـف اسـتطعت العثـور عـلى فنـدق أنـام فيـه. قـال الـبروف مكمـلاً، فأخـذ الأعمـى يقهقـه بصـوت عـال حتـى سـالت دموعـه، وكان المـكان يلفّـه فـراغ ووجـل عظيـم. وقبـل أنْ يغـرق في لجّـة الصمـت الموحـش، تذكـر صانـع الطعـام أنْ يسـأله عـن سـائق عربـة التاكـسي الـذي كان يرافقـه، وأيـن ذهـب؟ قـال الـبروف: جعلنـي ذلـك المحتـال أحاسـب عـلى شرابـه وأخـذ منـي مـا يزيـد عـن مـا يكسـبه في أسـبوع متواصـل مـن العمـل الشـاق، ومـضى تـاركاً لي في حانـة الشـيخ عـلي. مـن المرجـح أنْ يُصـاب أي كلـب

بالصدمة، لو عرف أنني أشبهه به!

لا شيء يفرق، سواءٌ أنْ حدث هذا هنا في هذه القذارة الوضيعة التي تحيط بهم، أم حدث هناك على قمة الأولمب حيث تنام الأساطير سعيدةً. فقد خلقوا جميعاً من الطين الذي يتململ على الأرض بدون أدنى إحساس بالمطر، أما العظيم سيلانوس رمز الخمر فقد خلق من السماء التي نزفت من جرح أورانوس. ولكن ليس هنالك فرق، فلن تدنس هذه المقارنة البليدة قمة الأولمب في بلاد اليونان. لن تغضب آلهتهم السكرانة، ولن تتوقف أبداً عن رعاية فنون الإغريق وجموح أساطيرهم. ومن المؤكد، أنْ تزدهر الكوميديا والتراجيديا، وبإماكن أي شخص، دون أنْ يصنّف مجنوناً، أنْ يضحك أو يبكي في نفس الوقت. العالم الذي تعرفونه، غائبٌ عن الوعي، فقد القدرة على التنبؤ المستبصر بالمستقبل، بل أنه غير قادر على دفع الناس إلى جعل الماضي، حاضراً محتملاً.

أكمل الأعمى الغناء وحده.

وهو سعيدٌ أنه لا يرى وجوه أصحابه وهم غاضبين منه.

سكِر السُّمار والخمّار فى حان الغرام

وأنا الصّاحى أرى فى النور أشباح الظلام

وغدت كأسى على راحى بقايا من حطام

عادنى الوجد إلى ليلى وكأسى المترع

وسعير الحب يشقينى ويشقى مضجعى

ولهيب الشوق يدعونى فهل أنت معى؟

شرع قلبه في الإحتضار بشكلٍ أسرع من أنْ تفهم نبضاته أنّ عليها أنْ تتوقف. نستطيع القول أنّ ابتسامته الباهتة قد صارت تربك حزنه الصريح ذاك. تباغته في التوقيت الخاطئ تماماً، فتُضجِر روحه في أعتى حالات يأسها التام. يندلق الكأس على قميصه فيسرف في اللعنات اللا رحيمة. فتناجيه الرّوح: حمداً لله خسرت الخمر ولكنك ربحت رائحتها. قد تحتاج الآن إلى طبيب، ولكن إذا تعطلت سيارتك، الاستماع إلى لغة الميكانيكي السوقية، تصير أهم من قسم أبقراط.

تحتاج إلى الوعي بحكمة، وإلا فالغياب المديد، ضروريٌّ حين تغرس في قلبك المتعب ضريساء الحضور. تجلد كلّ يوم بالسياط، وفي الواقع أنّ هذه العقوبة، محاكاة مخفّفة لما حدث لسيّدك باخوس ابن العذراء، فأنت تعلم أنه قد صلب قبل خمسمائة سنة من ميلاد المسيح في الشام. وكما نعلم فقد قطّعت كل أجزاء جسده ونثرت في كل أرجاء البلاد كيلا يعود أبد الدهر. السياط تؤلم روحك فلا تشفى، ولكن زوجة باخوس إيزيس والتي كانت أيضاً إلهة، قد خرجت تبحث عن تلك الأوصال الممزقة، وتحمّلت المشاق وقطعت المسافات الطوال، عبر البحار والوديان والجبال، وقامت بجمع كلّ أجزاء جسده، وحسب الأسطورة، جامَعته بعد ذلك، فعاد إلى الحياة منتشياً وقد أرضى السبيلين.

الآلام تنبثق من أقصى روحك، كما انبثقت الإلهة أفروديت من الصّدَفة، كما تنبثق المياه من الصخور بغضبٍ رحيم. الألم طقسٌ إيروسيّ يضاجع خيالاتك، لا يتركك تنفرد إلى روحك، فتنبثق من قلبك اللعنات، تبارك بها كلّ العالم بخيره وشرّه. تصرخ تصرخ، يخفق قلبك بشدة مثل عشتروت وهي تتمزّق تحت أنياب الوحش الكاسر، لن تنجو كذلك يا ابن الخطيئة الآثمة. تشرب فتقسم أنك لم تسكر. تترنّح، فتسقط الكأس، تغيب عن ذاتك، تقسم أنك لم تسكر. أنا لم أسكر بعد. أعظم كذبة متداولة في الكوكب. تقول أنك لست سكراناً، ولكن القاضي لو رأى آثار قدميك في الطريق، لحكم عليك بأربعين جلدة وصيام قرنين متتاليين عن الخمر. السكر يا صديقي ناسات وليس كأسات. ألم يعلّمك السكر أنْ تستثمر الوعي بحكمة؟ لن ترتوي وبالتالي لم تسمع أنّ أجدادك البابليّون كانوا يعاقبون العمّال الذين يصنعون النبيذ الفاسد بالغرقِ فيه. أقرباؤك الشريرون من الفايكنج وهم يجوبون بسفنهم الضخمة بحر الشمال، كانوا يسرقون ويقتلون الناس لمجرد أنّ شعر رأسهم ليس أشقراً، ولكن كانوا يؤمنوا بأنّ لديهم شاةً في الفردوس، عندما يحلبها الصالحين، إنْ وُجِدوا، ستتنزل عليهم أطيب أنواع الجعة. لا تقلق فهذا العرض يسري على الصالحين فقط. لو كنت تعلم يا ابن الذين ثملوا وعملوا الموبقات، لتعلّمت أنْ تستثمر الكأس بحكمة، بدلاً من مغبّة إهراقه في جوفك الفارغ من أي معنى كان.

«الخمر مستهزئة، المسكر عجاج، ومن يترنح بهما فليس بحكيم»

سفر الأمثال

قررت السيدة ذات العينان المجنونتان أنْ تتولى توزيع الكأسات هذه المرة، في الحقيقة هي لم تقرّر ذلك حتى يفهم أنها أخبرتهم أنها تريد أنْ تفعل كذا وكذا. أخذ البروف يراقبها وقد انجرف نحو الشعور الذي يسطل عنبره. عندما رآها تدور بينهم تسقيهم الرّاح، كأنها السيدة فوز في صالونها الشهير في حي الموردة. ولكن لم يكن من بينهم خليل فرح ولا أحد من وجهاء المدينة وأعيانها.

دندنت روحه: يا سُقاة الكأس من عهد الرشيد!

محض مصادفة وحسب يا جماعة، فقد ذهب صانع الطعام إلى الحمام وغاب طويلاً، فمعدته لم تعد تحتمل الطعام الرديئ الذي كانوا مجبرين على تناوله هذه الأيام. صاح الأعمى: يا صانع الطعام عليك سجود السهو! كان يذكره بكأسه وقد تأخرت سُقيته، فلم يتلق ردّاً إلا صوت إنسان يخبره أنْ ينتظر ريثما يعود موزّع أرزاق الصبابة. وهو أمرٌ مخيّبٌ لآمال من كان يتوقّع سماع صوت خرير السائل في الكأس العطشان. شُرِح لها الأمر، فتناولت القارورة والجمت الأعمى كأساً طويلاً أبهج روحه الظمئة الطماعة. عند عودة صانع الطعام ناولته كأسه هو الآخر، فأشاح بوجهه ممتعضاً، ثم عاف الكأس عاف الملعبا.

عندما طلبت السيدة كأساً أخيراً، تبسّم البروف بحسرة، فها هي الأخرى تطلب شيئاً صعب المنال، فقال لها: لقد طلبتِ المحال، إلا نجيب لك مريسة تام زين! بدت مستغربة وسألت: مريسة تام زين؟ أخشى أنني لم أفهمك، ماذا تقصد؟ إنها حكاية قديمة يا سيدتي. ولكن يبدو أنك لستِ منشغلةً جداً، لذا سأحكيها لك وأمري إلى الله. انتبهت حواسها وبدت مصغية، ولكن هذه الحكاية لن تثير اهتمام أحد غيرها، بعد أنْ سمعوها ربما مئات المرات. قال البروف: تام زين هذه صبيّة كانت تعمل مساعدة ساقية في إحدى الإندايات الشهيرة، وكانت تعمل بنشاط وهمّة وتقوم بكلّ طلبات روّاد المكان. وكانت لديها خصلة دنيئة، فهي عادةً ما تراقب الزبائن المخمورين، ومن يعجز عن إكمال شرابه، كانت تأخذه وتقوم بوضعه في إناء بعيد عن أعين الجميع. وفي آخر الليل، يأتي السكارى المفلسون، أو الذين يترنّحوا، ومع ذلك يصرّوا على شرب المزيد، فتقوم تام زين بإعادة بيع بواقي المريسة لهم، وكانت تطلب ثمناً بخساً لقاء ذلك. وعلى الرغم من أنّ العادة جرت على إعطاء الزبائن جرعات من المريسة ليحكموا على جودتها قبل أنْ يجلسوا، ولكنهم كانوا لا يهتمون. فصار لديها زبائن ثابتون يأتون فقط لشراء هذه المريسة الرخيصة. بعد ذلك عندما وصلت الأمور إلى السوء ما لا يمكن احتماله، وضاقت الحياة بالناس، صار الناس الذين يعملوا ويكدوا بدون مقابل مناسب لمجهوداتهم الشاقة، يقولون في تحسّر: ليته يجيب مريسة تام زين. فأصبحت مثلاً يضرب للجهد المبذول بلا طائل.

خـرج الكثـيرون لمشـاهدة هـذه الكائنـات التـي سـمعوا عنهـا في الراديـو والتلفـاز، أي التأكـد مـن وجودهـا مـن عدمـه، عندمـا عـادوا، قالـوا أنهـا غـير موجـودة، وبنـاءً عليـه، قـرروا أنّ كل مـا لم يـروه، فهـو ليـس خطـراً عـلى حياتهـم. خـرج الذيـن سـمعوا هـذه الحكايـة، فقـط لـكي يتأكـدوا مـن صدقهـا! بعـض النـاس كذبهـا بشـدة، وبالطبـع صدقهـا بعضهـم، فـكل مـا لا تـراه ليـس خطـراً عـلى حياتـك. وهـي حكمـة قديمـة لحافـر قبـور، فقـد قـال: كل المـوتى الذيـن دفنتهـم أكـدوا أنّ القتـل بمسـدسٍ كاتـمٍ للصـوت هـو أفضـل مـا حـدث لهـم، بـل إنـه ينبـي عـن نبـل أخـلاق قاتليهـم! تسـاءل بعضهـم: هـل أصابـت هـذه الكائنـات الشريـرة الـلا مرئيـة، الحيوانـات والطيـور أيضـاً مثلـما حـدث سـابقاً للبقـر والدجـاج والخنازيـر؟ كانـت الإجابـة صادمـة: لم يحـدث قـط. إذن ينبغـي عـلى البـشر الآن أنْ يجلسـوا في أقفاصهـم، وفلتخـرج الحيوانـات والطيـور لتتفـرّج عليهـم. وهـذا هـو الهـراء بعينـه.

ضحكـوا بفجـور مـن تنخـس المأسـاة مؤخرتـه. ثـم بكـوا بـبراءة الرضيـع الـذي تملـص الثـدي مـن فمـه، وفارقتـه رائحـة أمـه، وذهبـت لـكي ترضـع والـده. مـا أنسـاهم فجيعتهـا، التـي أصبحـت فجيعتهـم، الكائنـات الشريـرة الـلا مرئيـة التـي تتربـص بهـم بالخـارج، الرهبـة المسـكينة، الخـوف العمـلاق، والذيـن آمنـوا بربهـم مـن الظالمـين وأبنـاء الحـرام. بـدأ الجـوع يسـنُّ سـكاكينه عـلى جلودهـم وأمعائهـم، بالتحديـد هـو العطـش، ولكـن الإنسـان في بعـض الأحيـان، قـد ينـسى ترتيـب أولوياتـه. السـيدة ذات العينـان المجنونتـان، أصبحـت مجـرد سـيدة عاديـة. بالإمـكان تمييزهـا بثديـين، فخذيـن، شـعر وشـعر عانـة، عطـر، شـكاوى،

تركيـز عـال، مـزاج متقلـب، معـك جـداً وضـدك جـداً، دورة دمويـة سـاخنة، ودورة شـهرية ماجنـة، جهنـم، نـار، كفـر وإيمـان. سـيدة وحسـب. الفـرق الوحيـد، أنّ عينيهـا لم تعُـدا مجنونتـين. لا أحـد لديـه التفسـير المنطقـي لوصـف عينيهـا. ولكـن الجميـع أتفـق عـلى التـالي: نظرتهـا مسـكينة، فـإذا نظـرت لـك فهـذا يعنـي أنّ نزلـك في الفـردوس الاعـلى، بالطبـع عـلى أقـل تقديـر. عينيهـا، صارتـا، سـاحرتان شريرتـان مشـعتان، وهـذا حـدثٌ كوكبـيٌّ نـادر، كأنّ كوكبـا الزهـرة والمشـترى قـد أقتربـا مـن بعضهـما في السـماء. لـو نظـرت لـك لا منـاص مـن دخولـك إلى أشـد الأمكنـة حـرارة في الحيـاة العليـا. فهـي لا تحبـذ الآراء التـي تفـرق بـين النـار وجهنـم، وحسـب مـا قالـت: جهنـم؟ مـا الفـرق بينهـا وبـين نـار شـمعة إذا كانـت المحصلـة النهائيـة هـي الحريـق الكامـل؟ تلاعـبٌ فـارغٌ بالألفـاظ، غرقـك في حـوض السـباحة وأنـت تسـتمع إلى سـيمفونية ناعسـة، وغرقـك في البحـر الميـت، كلاهـما سـواء! النتيجـة واحـدة، وسـتكون آخـر جملـة في سـيرة الميـت الأول أو الثـاني: مـات غرقـاً. هـل الميـت سـتفرق معـه إنْ كان غرقـه قـد حـدث في ميـاه معقمـة أم بالوعـة؟ يـا مجانـين لـن يفـرق هـذا إلا مـع الشـخص الـذي يغطـس لـكي ينتشـل جثتـه.

ثرثـرت كثـيراً ومـن ثـم سـمعت أحدهـم وهـو يـصرخ بعـد أنْ مـلّ الانتظـار: دخلـت امـرأة النـار في هـرة، حبسـتها حتـى ماتـت! انتبهـت فجـأة إلى أنهـا لم تفهـم المغـزى كالعـادة، فهـم دائمـاً يتلاعبـون بالكلـمات والألغـاز، ولكـن الأكيـد أنهـا فهمـت أنّ هنـاك غبيـاً يهـرف بمـا لا يعـرف. صرخ صانـع الطعـام مولـولاً: ألا تفهمـي أبـداً؟ أرجـوووك يـا سـيدتي، افرجـي عـن الـكأس!

ما كان بإمكانها أنْ تفهم هذه الشيفرة أبداً!

* * *

لم يعد لديهم خمر في البيت، يسأل أحدهم عن الخمر، فيأتيه الكأس خاسئاً وهو حسير. وكما يقول جلال لدين الرومي: «لا كأسات خمر هنا، لكن خمراً تدور، لا دخان، بل لهب، اسمعوا الأصوات خافقة، بما تنخر به الأنغام». وهذه حقيقة عليهم التعامل معها. لم يكن بإمكانهم الخروج أبداً. الأمر لا يتعلّق بتحذيرات الحكومة المتخبطة، ولكن بسبب خوفهم من تلك الكائنات الشريرة غير المرئية التي بدأت في إقتناص أرواح الناس. توقفت الحياة تماماً، تسرّب الرّعب إلى قلوب الملايين. دارت بينهم تساؤلات عديدة، والجديد أنهم بدؤوا يفكروا في النهاية الوشيكة، فدرات أحاديث عن ضرورة الكفّ عن الشراب والتفكير جدّياً في التمسّك ببعض الإيمان، استعداداً لرحلة القيامة القريبة. لا ضير من تملّق الإله ببعض الصلوات والتكفير عن الذنوب التي اقترفوها طيلة حياتهم. وفي السبيل إلى تحقيق هذه الغاية، جمعوا بقايا الكسرة والخبز الجاف، بالإضافة إلى كل ما يمكن تخميره من بقايا الطعام، فلم يكن هنالك سوى القليل من الذرة في البيت، وبهذه الكمية القليلة من الذرة، بإمكانهم صنع بعض المريسة ومثلما أكد صانع الطعام، بهذه الطريقة يمكنهم أنْ يربحوا مرتين، أنْ يسكروا ويشبعوا. أما باقي الكسرة والخبز الجاف، فقرروا أنْ يصنعوا منها، نوعاً آخراً من النبيذ المحلي.

تحت إشراف صانع الطعام، نظّفت الذرة من الشوائب، وغمرت بعد ذلك في الماء لساعات طويلة. وفي الصباح فرشوا بعض الإغطية، ومن فوقها أوراق بعض الصحف، ونثروا فوقها الذرة النابتة حديثاً وتركت إلى اليوم الثالث حتى تجف جيداً. بعد ذلك تم تجفيفها وسحنها، وفور الإنتهاء من هذه العملية، قام صانع الطعام بطهوها جيداً، ووضعها في قدر كبير وقام بتغطيته لبعض الوقت. بعد ذلك صبّ كمية من الماء في العجين المطهو، وتركه لكي تكتمل عملية التخمير. بعد مرور بضعة ساعات، بدأت رائحة العجين المختمر تتصاعد من القدر، فقام وفتحه حتى يدخل الأكسجين فتتغذى البكتيريا الطيبة. فأنبل ما تفعله البكتيريا بعد المساهمة في صنع الجبن، هي مهمتها في صنع الخمر. وأظنه كان لا يعلم شيئاً عن التفسير العلمي لهذه العملية، ولكنه يعرف كيف ينفذها بدقة، وهذا هو المهم في الوقت الحالي. كانت النهار حارّاً جداً، بلغت درجة الحرارة ما يزيد عن أربعين درجة. هذه المعلومة مفيدة في أمرين. لأنها ستساعد في تسريع عملية التخمير، والأمر الثاني هو أنّ كثير من الشائعات أكدت أنّ تلك الكائنات الشريرة، ستموت في درجات الحرارة المرتفعة، الأمر الذي جعلهم لا يتضايقون منها. بالطبع تولى صانع الطعام هذا الموضوع تماماً، فانهمك فيه ولم يعبأ بسخرية البعض، خصوصاً تعليقات الأعمى من شاكلة: يا ابن صانعة المريسة. ولكنه ردّ عليه بثقة: يا رجل لقد كانت جدّتي تعمل بشكلٍ

قانوني تماماً، وترتفع رايتها البيضاء بكل وضوح. لم ترفع أبداً الراية الحمراء، محالٌ فهي لا ترضى أنْ تبيع العرق الحرام، حسب رأيها، ثمّ أنّ رفع الراية الحمراء قد يفهم خطأ، ونحن أسرة محافظة كما ترى. ولكن جدّي كان رجلاً مؤمناً، صحيح أنه لم يتخل عن شرب المريسة حين طلبوا منه ترك الخمر، قال أنه يشربها فقط وفاءً لها. لأنه في إحدى سفرياته، تقطعت به السّبل في منطقةٍ خلويةٍ منقطعة، ولم يكن معه غطاء، ولحسن الحظ كان لديه بعض العرق، شربه فنام ولم يشعر بالبرد ولا لسعات الناموس، لهذا عليه أنْ يحفظ الجميل للخمر، فقد وقفت معه في أصعب الظروف، حين تخلى عنه أقرب الأقربين. أطلق الأعمى ضحكة ساخرة: ألم أقل لكم؟ أنت تعتبر الأمر مثاراً للسخرية، على العكس تماماً، فهذه هي تقاليدنا. عندما شاخ جدي جداً، صار يسكر بالرائحة. وكيف هذا؟ كانوا يصبون له الماء في قارورة كانت فيها خمر، فيشرب منها جرعة أو اثنان، فيعوجّ لسانه ويطلب العشاء، وكان صوت شخيره يتصاعد قبل أنْ يحضروه له.

هؤلاء أناسٌ أصيلون، يحافظون على تقاليدهم الراسخة، يرفضون المساس بها. الكثيرون من سكان آيرلندا، بالغوا في ردة الفعل، حين سمعوا أنّ الجعة من طراز جينيس، وهي مصدر فخرهم الوطني، ربما تصنع منها عبوات تجارية صغيرة، في شكل قناني وعلب شعبية تباع في الحوانيت ومحلات السوبر

ماركـت. ثـارث ثائرتهـم، فهـذا القـرار الأحمـق، يشـبه أنْ تهـدم مبنـى أثريـاً، لتقِـم مكانـه مطعـماً للوجبـات السريعـة. فـأي عـارٍ كان سـيحلّ عـلى رؤوسـهم لـو وافقـوا عـلى هـذا القـرار. قالـوا: الجعـة مـن طـراز جينيـس فلتبـق في براميلهـا المجيـدة!

أكتملـت عمليـة التخمـير وتصاعـدت الرائحـة المميـزة معبقـةً للجَـو بالأخبـار السـعيدة. بعـد ذلـك قـام صانـع الطعـام بتمزيـق عمامـة طويلـة مـن قـماش التوتـال الأبيـض، ليصنـع مصفـاةً لتنقيـة المريسـة مـن الشـوائب، فقـام بتصفيتهـا في برميـل متوسـط الحجـم وسـط ترقّـب الجميـع. ونظـراً للظـروف التـي تحيـط بهـم، أتفقـوا عـلى أنْ يحتفظـوا بالشـوائب، فربمـا تكـون بمثابـةِ وجبـةٍ أخـرى في حـالِ لم تتغـير تلـك الظـروف التـي تحيـط بهـم. صاحـت السـيدة ذات العينـان المجنونتـان محتجـة: هـل تريدوننـا أنْ نـأكل هـذا الهـراء؟ أو بالأحـرى هـل تتحملهـا معـدة شـخص؟

أنْ تمـرض بالاسـهال خـير مـن أنْ تمـرض بسـوء التغذيـة، فبذلـك تضمـن أنْ لا تمـوت جعانـاً.

للجائع حكمةً لا يعرفها المتخم.

تراوحـت قدراتهـم في هـذه العزلـة عـلى نحـوٍ مـؤاسٍ لذواتهـم الأنانيـة المتشـددة، حيـث تبـدأ الإبتـلاءات الكبـيرة بشـكلٍ يضفـي لمسـة تشـكيكية لقـدرة العـالم عـلى التشـبّث بأبديّتـه وقدرتـه عـلى الصمـود، وبشـكلٍ أو بآخـر ينتهـي كل شيء بغتـةً كـما بـدأ. أقـدار عبثيـة تمـدّ بنـان «السـكارزم» الأوسـط للكوكـب برمته. والمسـتبصر بحذاقـةٍ الفَطِـن يلاحـظ أنّ معظـم هـذه الإبتـلاءات، المـرادف

الإيامني للكوارث، في الغالبِ ترتجل وجودها، أو تحدث بغفلةٍ عريضة لا ينتبه إليها العالم، أو يغفل عن التوقيت التقريبيّ لحدوثها، ولكنها تنتشر رغم هذا التهرُّب، لا كجموحِ السّيل، ولكن كتسلّلٍ همجيّ لجائحةٍ مطر إستوائي، في غير أوانه. تباغت العالم كجداول وقنوات مرتجلة تتفتقُ خيوطها من أنهر فجائية متخيّلة، تغافل أوقات السهو الجماعية. ومن هنا تبدأ المسارعة لتسمين كباش الفداء، استزراع الإيمانيات، حصد الشكوك، عقد حلقات النقاش، كلٌّ حسب قدرته التحليلية، وكلّ فريق ينبري لإثبات قدراته على تسوير مناطق العزل المفاهيمي الفوقي لبقية الرّعية الجاهلة بالضرورة، بحيث يبقى وحيداً يخفر أبواب فكرته اللامعة، ويؤدي نوبات حراسته لها، غض النظر طبعاً، عن قبول الآخر بهذا العزل أم لا. فلا تتوفر، قطعاً، الأمانة في علاقتي السبب والنتيجة، بتحاشي النظر إلى الفكرة، والإمعان الألمعي في قتل الموضوع بحثاً وتنظيراً. يلمع التصعيد الديالكتيكي الذي يحفز الإرادة ويدعم قدرتها على تحقيق غاياتها، ينحسر مدّه وفقاً لتنامي الشراهة البداهية لحالة أولئك المهزومين أخلاقياً في صراعات الضمير الإنساني. فيبرز انتهازيون، واستغلاليون سفلة، أشبه بتجار الحرب القتلة، الذين لا يتورّعون حتى عن المتاجرة بأعضاء رفقاء القضية. فيلجأ بعضهم إلى التسوق عبر بورصة الغايات النبيلة، مسوّغين كلّ تلك المواقف إلى الضرورات اللازمة. لازمة حيث من شأنها الحطّ أحياناً من شأن كلّ ما هو أخلاقي. عبر عَيْهَرَة ما كان شريفاً، بوسائل شيطنة لافتة لا يلجأ لها إلا هؤلاء الانتهازيون.

لا أحد كان هناك زمن حدوث هذه الكوارث السابقة، ولكن

بالإمـكان تصـوّر مـا حـدث بتهكّـم مفـرط، خصوصـاً عندمـا نصطحـب مـا يحـدث حالياً. الافـراط في تنـاول المسـكنات ربمـا يكـون أول مراحـل الفشـل العلاجـيّ بمفهومه الشـامل، لأنّ الجسـد، ربمـا، يتعـوّد تدريجيـاً عـلى هـذه الخـدع الترميميّـة الهشّـة، وهـي بـلا شـكّ، مهزومـة، مدحـورة، فـور انطـلاق أول صافـرة انـذار حقيقـيّ، كـما كان يحـدث في تلـك الأيـام.

مـاذا يحـدث خارجـاً؟ ومـن الـذي أطلـق تلـك الكائنـات الشريـرة الـلا مرئيـة؟ أهنالـك خطـأً بيولوجيـاً مـا أرتكـب في إحـدى معامـل تلـك الـدول القاتلـة؟ ولكـن إذا حـدث مـا هـو متوقـعٌ وشـارف العـالم عـلى الفنـاء. هـل اسـتنفذ البـشر جميـع طـرق مقاومتهـم بالفعـل؟ يقولـون أنّ العـالم سـينتهي، سـيحلّ الظـلام، سـتتوقف محطـات الطاقـة عـن العمـل، سـتصير القطـط والـكلاب متوحشـة، تقتـل بعضهـا، تتمـدّد الغابـات في المـدن، يمحـى كل أثـر للحضـارة البشريـة، ومـن ثـم يعـود العـالم كـما بـدأ قبـل البـشر الذيـن أضاعـوا فرصتهـم الأخـيرة بسـبب أنانيتهـم وجشـعهم المفـرط. في مثـل هـذه الأحـوال تصـير التقاريـر التـي تصـدر عـن منظمـة الصحـة العالميـة شـيئاً ذا بـال، الجميـع يتناقلهـا بشـغفٍ واهتـمامٍ بالـغ. كـما يعـود جهـاز الراديـو ليصبـح صديـق الأذن الـوفي.

وعـلى عكـس مـا يريـد النـاس، كانـت تقاريـراً محبطـة إلى حـدٍّ كبـير. تؤكـد للنـاس أنهـم ليسـو محصّنـين، مـع التأكيـد أنّ لديهـم تدابـير قويـة لتخفيـف حـدّة هجـوم تلـك الكائنـات الشريـرة غـير المرئيـة، فهـم قادريـن عـلى السـيطرة عليهـا. مـع التشـديد عـلى

ضرورة بقاء الناس في منازلهم. وهم بذلك كأنما يخبرون الناس بأنّ حلول الأرض قد استنفدت، وما عليهم إلا انتظار حلول السماء.

سُئل أمين معلوف: إذا قابلت الله في يومٍ من الأيام ما تتمنى أنْ يقول لك؟

أجاب: أتمنى أنْ يقول أنه بريءٌ من كل الجرائم التي أرتكبت باسمه!

ليس هذا ما يهمهم الآن، طالما صنعوا مريستهم، وبإمكانهم أنْ يبتهجوا ويخففوا وطئة الجوع التي ألمّت بهم.

* * *

«إنّ المرء يشرب حزنه ويسكر به».

فيودور دوستويفسكي

تتصبّب الكأسُ عرقاً، الليل يوسوسُ فاتحاً لمزلاج ماخوره، تتراقص أجنحة شمعةً في عتمته اللذيذة، توبّخ أطراف حشرات الليل، لا بالطبع، تحرقها تماماً، فلا تستطيع أنْ تفرّق بين رائحة شوائها، واحتراق الزيت في السراج الموضوع أمام سِتّ الشاي التي تجلس صامتة، تفتح محفظتها، فتجد صوراً قبيحةً لبائع الخضار، مدير المدرسة، صاحب البيت، دكان القصّاب ومحاسب المشفى الصغير، كلهم متحفزون داخل محفظتها

ليحصوا ديونها. تصرصر الجنادب المزعجة القبيحة، أحقرها يقذف نفسه بين لهيب فخذيها، فتتذكر ثعابين الليل الشريرة التي تنتظر أوبتها لبيتها، لتزحف هي الأخرى بعيداً بعيداً، ولا تريد أنْ تتذكر السّونكِي المرخّص من قبل الحكومة لطعن شرف النساء. نقيق الضفادع على بشاعته، هو أحسن من سماع سماجة أحاديث الزبائن ومُراوداتهم الرخيصة. كان نصفهم من العطالى، المراهقون، العمّال، العسكر والشرطيّون وباقي آفات الأرض من الذين يطلبون ولا يدفعون.

في ليلةٍ سابقة توهّمت أنّ مُنادٍ من السماء أخبرها: كنت في النار ولم أجد إبليس. ناداها مُنادٍ آخر: أنا في الأرض ولكن الأبالسة يتحلّقون حولكِ. بوسعها التأكيد على أنّ الأبالسة في كل مكان. بوسعها القول لو استطاعت. حول دائرة النار تلك، تجلس سِتُّ الشاي، النار تشوي وجهها، توزّع طلبات زبائنها، ابتساماتها العجولة، المرتعشة، وبالكاد نستطيع فهْم أنها لا تخشى أيّا منهم! كل ما تخشاه هو الإصطفاف الضروريّ، ليس برغبتها، آخر الليل حول سريرها، وسط غطيط أطفالها المساكين.

الحكومة تأكل من فخذيها ولا تعترف أنها تتغذى على الأفخاذ. ستفرغ من عملها وتمضي لكي تكمله في بيتها. فهي تعمل، حرفيّاً، منذ أنْ تدفّق الدّم المقدّس كي يُعَهِّرها. أحذيةٌ قاسية تنتعلُ صمت الجميع، ربما صنعت من جلود حيوانات

طيبة، ولكنّ صانعيها لم يسمعوا خفقات قلوب تلك الحيوانات وهي تتلقى ذخات رصاص الصياد، كي لا يصنعوا من جلدها أحذية للعسكر. من ساعتها أدركت، لكم بليدٌ هو الإحساس بأي شيء، فما عليه سوى أنْ تنتظر الفرج بعيداً عن الزجِّ بنفسها في مشاعر بشرية بليدة. ولكن ثمة صوت من البعيد يصيح: أيها المساكين: أنتم موتى، لا تصدّقوا دقّات قلوبكم! لا تعلم لا تعلم. ثمة موتى لم يعثروا على قبورهم فلا تغرك المظاهر. مثل هؤلاء الذين يقبعون على مقربة، ينسدل على أشباح ظلالهم ضوء السراج الباهت، وعلى الأقل، تعرف هؤلاء الأربعة، الأعمى، البروف، والثالث والرابع على التوالي بتنا نعرفهما بصانع الطعام وصاحب البيت. يحتلوا مقاعدهم طوال الليل، يدفعوا فقط مقابل أربع أكواب شاي، وفي أيام كثيرة لا يكون لديهم المال الكافي. وبحكم العادة لا تسألهم أبداً، تكتفي فقط باللوم الصامت، على الأقل لأنهم كانوا لا يطرقوا بابها ليلاً.

انشغل جميع الزبائن بهواتفهم، وكان الجوّ خانقاً، مما ينبي بحالةٍ متوقعة من السأم. تناهت إليها أصواتهم الخفيضة اليائسة، تعرف أنّ لديهم زجاجة يتناقلونها فيما بينهم. قال الأعمى: إنها حالة أسوأ من الموت. التفت إليه البروف، أطرق مسافةً، تفكّر في نفسه: هل سيموت كل هؤلاء الناس البسيطون؟ سيناريو مرعب لا يريد أنْ يجعله يسيطر عليه. يتذكر مقولة إبراهام لينكولن: «إنّ الرّب يحب عامة الناس،

لذلك يخلق منهم الكثير». فيجد فيها بعض العزاء الفقير. ولكن الفقراء البسيطين أنفسهم، سيجدوا مليون طريقة لكي يقضوا على بعضهم. لن يفكروا أبداً في إيجاد طريقة يتوحّدون بها، إلا تحت راية ظالمٌ جبّار يمتطيهم كالأحصنة. يقولون: النار تأكل بعضها حين لا تجد ما تأكله. أعني أنّ الفقراء لطالما تفانوا في القضاء على بعضهم، بإشارةٍ من شخصٍ ما يصدر الأوامر، ولكنهم لا يعلموا أنهم أقوى منه بالفعل، ولكن تخيفهم لمعة الفولاذ الذي صنعت منه السيوف، ومعظمهم لم يجربوا طعناتها.

الصراع بين الموت والحياة محتدمٌ منذ الأزل، فلا تخمد ناره إلا لتندلع في جانبٍ آخر. وهو يماثل الصراع بين الرجل ال جاك دانيل والمرأة التكيلا. أمرهُ عجيبٌ جداً. فالرجل من قبيلة جاك دانيل، عدوانيٌّ شهير، وعلاوة على ذلك، فهو غير مستساغٌ في معظم أحواله، الحياة معه منهكة،، وكل لحظاته السعيدة، تنتهي بنوبات صداع مهلكة. مشاعره شحيحة بعيداً عن تأثير الإيثانول. وحتى إنْ جاد بالقليل من المشاعر، ستعقبها بلا شك لحظات ظمأ طويلة حارقة. من الحكمة تجنّب الرجل من صنف الجاك دانيل، فهو فلكياً ينتمي لبرج الدلو، لو غمرته في بئر مريسة لسنوات، لن يرتوي أبداً! أما المرأة التكيلا، فهي حاسمة سريعة ذات صبرٍ نافد، تفضل العلاقات قصيرة الأمد، ولأنّها تقرف من الرجال ولا تطيق حتى روائحهم، لا تقترب منهم إلا ومعها شريحة ليمون مالحة. الرجل

في نظرها ذو صلاحية محدودة، وبعدها يمضي فلا يتبقى من ذكراه إلا «هانق أوفر» لعين بمثابة استعادة تعيسة مشوشة لذكرى أمسية غير جديرة بالاحترام.

المأساة تصبح واسعة الحيلة، حين يصفّق الأدرينالين للمرأة التكيلا والرجل ال جاك دانيل. ولنتحدث بصراحة. سيقول الشيطان: ها أنذا!

هل سمعتم بسلطانٍ صنع سيفه بيديه؟ هل رأيتم سجّاناً بنى زنزانة واحدة؟ نحن نصنع السيوف فيقطعوا رؤوسنا بها، ونبني السجون ونقضي حياتنا فيها. الدرب هناك، سِر أو فمُتْ. لا تسأل المشاوير عن ألم الشوك في الأقدام فإنّ الطرق حافية. مُت، فبعد موتك بسنوات، ستسخر من نفسك حين تعرف أنّ قبرك هو البيت الذي طالما خشيت أنْ تسكنه. هذا ما يحاول قلبك أنْ ينسبه إلى عقلك. كم يستغرق القلب لكي يفهم أنّ عليه التوقف عن الطرق على نافذة الصدر؟ صاح الأعمى: ازعجتنا بالتشاؤم يا رجل، الموت صنع فقط للحالات الطارئة، حين تسأم الروح من الجسد، ولكن حسبما أرى، أرواحنا لم تزل مشتاقةً إلى الحياة. حين تشرب الخمر ولا يبدو عليك الإختلاف، يستحسن أنْ تكتفي بشرب الماء.

دعونا نغني فننسى. دعونا ننسى محاولاتنا للنسيان.

نحن لسنا فاسقين بل ناجين من سجن الحياة.

دعونا نغني.

يا نديماً عبّ من كأس الصبا

ومضى يمشي الهوينا طربا

بِتُّ أشكوه لنجمٍ في اللّيالي لمعا

ونعيمٌ عندما رق لحالي دمعا

ولطلّ فوق زهرٍ كالآلي جُمعا

وندیمي عبّ من كأس الصبا وسقاني

ثم عاف الكأس عاف الملعبَ وجفاني

توقفوا عن التفكير في الموت بهذه الحيلة القديمة المجرّبة. وبدأ الصمت يلفّهم. لا شيء يذكر سوى طنين حشرات الليل. وبينما هم كذلك، وكأنما فرقعت قنبلة. نهضوا فزعين من مقاعدهم، هربت ستّ الشاي مذعورة، دُلق الماء الساخن على فخذيها، وما تألّمت. لم يكن يخيف الناس في تلك الأيام، إلا أنْ يعطِس أحدهم دون سابق إنذار. فليس هناك صوتاً مخيفاً أكثر من انفجار عبوة ناسفة، مثل أنْ يعطس أحدهم!

* * *

بدأنا نفهم سرّ ذلك الإحباط الذي يصيبهم بفعل أزمة منتصف الزجاجة. لأنّ أول نقطة تخرج منها بعد ذلك، تعني ببساطة أنّ الزجاجة بدأت في العدّ التنازلي.

بإمكاننا التعامل مع هذه الحقيقة بكلّ مرارتها. فقيل لسكّير: لماذا تنظر لكأسك الأخير ولا تشربه؟ قال: رؤيته أمامي، تسعد روحي أكثر، فإنْ شربته فقد خسرته إلى الأبد!

الكافر الذي في صدورهم يؤمن بالله حين تكون العصا في يد الشيطان!

بالطبع حين لا تكون هناك حوجة إلى الإيمان، وكما قال ماركيز: «يا لغرابة الرجال! يقضون العمر في القتال ضدّ الكهنة، ثم يقدّمون كتب الصلوات هدية». بوسعهم تجاوز كل شيء، ولكن هل يستطيع النسيان أنْ يقيم مأتماً للذاكرة؟ النسيان يهيل التراب على أشيائنا الثمينة، وكلما كثر التراب، كلما شيّد النسيان قبراً سيصبح شاهداً، دون أنْ يدري، على حياةٍ سابقة للذاكرة لتحيا من جديد.

ملُّوا من كونهم منبوذين. ليس بالضرورة أنْ يكونوا نسخاً من جميع الناس الذين يقابلوهم في الشوارع. الأسرة ليست ملزمة، الجيران، الدولة، ولا أي شخص لا يكون طبيبك الخاص. في الواقع أصبحوا لا يميزوا بين حياتهم وهم واعين أو العكس،

فـلا توجـد فواصـل طويلـة بـدون خمـر.

* * *

سُـكارى؟ وصـفٌ مُخـز لـو كنتم تعلمـون. فهـم متجاوزون فحسـب لمـا قِيـل ومـا سـيقال. إذا تحدثنـا بصراحـة، هـم مدمنـون وحتـى دمـوع عيونهـم تترنـح عـلى خدودهـم غارقـة في لجّـة الإيثانـول. قـال أحـد القضـاة يدافـع عـن قـراره بجلدهـم وسـجنهم لمـدة شـهرين متتاليـين: عندمـا تتعـرّق أجسـادهم تحت أشـعة الشـمس، تكـون بهـذا قـد فتحـت جرّة مريسـة ناضجـة. وفي حـالِ أننـا حاولنا إجـراء بعـض المقاربـات، بإمكاننـا وصفهـم أنهـم ينتمـون فلكيـاً، أو خمريـاً، إلى بـرج التكيـلا. فهـم يرومـون إلى نهايـات ونتائـج سريعة، بأقـصر الطـرق. يتبـاروا أحيانـاً في الـشراب، أي أنّ الأسرع يأخـذ حصـةً مضاعفـة. ولعـلّ ولعهـم بهـذا الطقـس الذكـوري، جعلهـم لا يفضلـون وجـود النسـاء، وكأنهـم بذلـك يسـتحضروا عـادة إغريقيـة قديمـة، إذ كان الإسـتثناء الوحيـد في ذلـك الوقـت، وجـود نسـاء مـن الهيتـاراي المحظيـات الـلائي كـنّ يحـضرن جلسـات الـشراب، بهـدف جلـب البهجـة وتسريـع مفعـول الخمـر. أمـا المـرأة عـلى الأغلـب، فهـي شـاربة مـاء فقـط. فهـي بذلـك تتسـاوى مـع الأسـفنجة والرمـال وشـجر النخيـل.

السـيدة ذات العينـان المجنونتـان كان يقتلهـا الفضـول، ذلـك النـوع الـذي تزيـده الإجابـات نهـماً. قالـت: سـيقتلكم الخمـر.

ابتسم ورد: الخمرُ يقتل؟ لم يسبق لي أنْ شاهدت موتى مخمورين، ولكني عرفتُ أحياءً مخبولين. ردت مستميتةً عن وجهة نظرها: ولكنها خمر سيئة أيها السادة. لا ينبغي أنْ تسهب في لعن الخمر بوصفها رديئة، فهي كالجماع، لا يطيب إلا بفُحشه. علّقت: كلاهما يسخنان فيبردان، تعافهما النفس. وكلامي هذا عن تجربة حتى لا تسألني. وبعد ذلك أضافت: إذن ما الفرق بينك وبين مدمن المخدرات؟ قال: أنا من كوكب مزاجي مختلف، بإمكان أي شخص أنْ يتعاطى، ولكن الخمر هي لغة الغياب التي يتحدثها عقلي. لمّت هزيمتها من مُكر إجابته في استدارة عريضة لشفتيها، ولكن هذا لم يمنعها من أنْ تجادل: لا أريد لعقلي أنْ يشرع في طبخ فضيحة فيتّهم بالوعي، لا أستسيغ طعم هذا النوع من المؤامرات. استطيع فهم هذا. ردّ عليها وهو يبتسم. من حسن أخلاق النّديم، قلة الخلاف والمعاملة بإنصاف. أثنى على رجاحة عقلها. وأضاف: ركزي على الخندريس فمن الماء كل شيء حي. ولأنها غير معتادةً على هذا النوع من المجادلات غير المجدية، أو التي لا تقدر على مجابهتها، أبدت نوعاً يائساً من الاستسلام. وهذا النصر المؤقت جعله يضيف مؤمناً على براعته: على أنْ يكون الخندريس جيد الصنعة، وكما نعلم جميعاً أنّ من غشنا ليس منا.

أقترب منها بحذر الذي حرقت حنجرته نيران المجوس وقيامة الكأس الأول والأخير، احتضنها برفقٍ كأنه لم يفعل قط، ولكن المسافة التي تفصل بين أنفاسهما، بالتأكيد كانت تكفي لتشييد حانة شعبية تافهة! ومن فمه انطلقت قاطرة إيثينولية قبل أنْ يتقهقر قائلاً: لقد عشتِ في دول نسمع بها فقط، وهذا ما يجعلنا لا نناقش قضية جدّية تستحق إضاعة كلّ هذا الوقت. يا رجل سنصبح أضحوكة لو عرفوا أننا نتناقش في هذا الأمر. شدّت نفساً طويلاً من سجارة الصبر. فيردّ عليها: لن أقول لكِ إنها مهمة للبشر، كما إنّ الزرع لن يتورّط في الدفاع عن الماء، فهو من أهم أسباب حياته. خذي مثلاً، جدّة صانع الطعام التي كانت تصنع المريسة، كانت أيضاً تدفع الرسوم والضرائب، تساعد المساكين، وكان بيتها مفتوحٌ للجوعى وعابري السبيل، وكانت تعلم أنّ جدّات جدّاتها، صنعن المريسة كوجبةٍ في المقام الأول. من يصدّق أنها ماتت بصدمة قلبية حين أعلنوا تحريم بيع الخمور! لو القيت اللوم على امرأة مثلها، بإمكانك أيضاً أنْ تحطّم كأساً من الكريستال، بحجّة أنّ أحدهم شرب فيه الخمر.

ألا تخشى الموت؟ سألته وهذا السؤال قد يقدح شرراً عجيباً: ومن قال لكِ إنّ كل من قابلته في مكانٍ ما، هو حيّ؟ ربما يكون حيّاً رغماً عن أنفه. هل تعلمي؟ لقد فارقت ما كنت اعتبرها أجمل إنسانة في الكون، لأنها كانت تذكرني بالموت، الموت مهمة عزرائيل وحتى الآن فليمت كمداً، فأنا على قيد

الحيـاة! ولأننـا حمقـى، نـترك الحيـاة لـكي تمـلي علينـا قراراتهـا. قابلـت أسـتاذاً كان يعمـل في إحـدى الجامعـات، قـال لي: مشـكلتنا يـا أخـي والتـي صـارت بالفعـل إحـدى كوارثنـا، أننـا لا نعـرف كيـف نسـتمتع. مـا هـو سرّ هـذا الحـزن الـذي يرافقنـا في أكـثر لحظاتنـا سـعادةً؟ عندمـا نذهـب لبيـت الـشراب لـن تمـرّ الأمسـية دون بـكاء. يـا للعجـب! أنـا أطلـق عـلى بيـت الـشراب، وحـدة تخفيـف الألم. إذا لم يدفـن الـكأس أوجاعـك، فلـن تسـتطيع رمـال الصحـراء أنْ تدفنهـا.

وبالفعـل، وجودهـا في هـذا المـكان خطـأٌ شـنيعٌ مثـل احتسـاء المريسـة في كأسٍ مـن الكريسـتال.

ثم قدح شرره إثر رحيله عن حلكة ظلامه فأضاء.

ثم، طوى أثره من الطرقات التي لم يمش عليها.

ثم، نبحت عليه كلاب ربما سمعت برائحته.

ثم، طوى الأمس في سجادة الغد.

ثم، لملم كل قصاصات لا وعيه الرمادية، ليصمم منها علماً لبلاد يقظته.

ثم، استقل لأوبته، القطار الأخير للا عودة.

ثم، تسمّع صوتهم وهم يعلنون كفره، فصلى حتى مطلع الفجر.

ثم، تهاوت من عقله فكرة، فأهداه الخيال ألف نبضة.

ثم ماذا بعد هذا؟

ثم ترقرق الدمع في عيون كأسه، رقّ قلبه المرصّع بنجمات بيضاويات جميلات، فهذا غاية ما يبرّه به الثلج، ثم أبتلع ريق المشتاق للرمق الأخير في الزجاجة، كما تتوهم العيون أنّ المصباح يبلغ ذروة نوره، قبل ثوان من انقطاع التيار الكهربائي أو بعد عودته. ثم صاح يا داؤوود، رفقا بنا يا صاح. يصدف أنهم توصلوا إلى ذروة وعيهم بلا وعيهم مصادفة. لا شيء يمكن ترتيبه، أو إدراجه في قائمة ما يمكن تسميته بالمخططات.

ثم يصادف أنه فقط يفهم، أنّ هناك من يستبقي الوقت وهناك من يُسرعه. الإثنان خاسران. الوقت يمضي على قضبانهِ بسرعةٍ منتظمة.

ثم يصادف أنّ هناك من يعتقد أنّ الجنون هو الشارع الفسيح الذي يعبره المرء في رحلة اللا عودة. وثم يصادف أنّ هذا الشارع كنا نعبره معاً، منذ تلك اللحظة التي تذوقنا فيها طعم قطرات الحليب المتقطعة من أثداء أمهاتنا، إلى تلك اللحظة التي يرشوا فيها الماء على عيوننا، التي لن ترمش مجدداً.

* * *

يستحسن أنْ تكون جاهلاً بالقَدَر، وهذه طريقة أعتاد العالم أنْ يسيّر بها أموره. ليس من المهم أنْ تكون حاضراً حين يشرع كل شيء في الغياب. السعيدون فقط من كانت لديهم

القـدرة عـلى جلـب مـا لا يعكـر صفوهـم في أوقاتهـم الخاصـة، ولكـن العـالم أكتشـف للتـو أنّ بإمكانـه أنْ يتقاسـم هـماً مشـتركاً. حسـناً: هـل بإمكاننـا أنْ نختـصر؟

جيـد جـداً: زاد عددهـم في تلـك الشـقة بطريقـة سريعـة ومرعبـة في آن، لم يعـودوا وحدهـم في الغيـاب والحضـور، ولفّتهـم الوحـدة في صراع البقـاء عـلى أمـل. كلنـا نعـرف السـيدة ذات العينـان المجنونتـان، الأعمـى، الـبروف، صانـع الطعـام وصاحـب البيـت. ولكـن انضـم إليهـم لسـوء الحـظ، رجـلاً تعيسـاً، وسـيدة ربمـا تكـون البيضـة التـي صادفـت في طريقهـا حجـرا. كانـا هـما صاحـب الحانـوت الـذي فـرغ تمامـاً ذلـك الوقـت مـن البضائـع الداعمـة للحيـاة، أي بإمكانـك أنْ تطلـق عليـه اسـم صاحـب الحانـوت الشـاغر. أمـا المـرأة التعيسـة الأخـرى، كانـت هـي سـت الشـاي التـي تركـت أغراضهـا وولّـت هاربـة بجلدهـا حـين هجمـت تلـك الكائنـات الـلا مرئيـة الشريـرة. وحسـب روايتـه، تأخـر صاحـب الحانـوت عـن الرجـوع إلى بـيتـه الـذي كان يقـع في إحـدى الأحياء الطرفيـة البعيـدة، وكان بإمكانـه بالطبـع العـودة مشـياً، وهـذا قـد يسـتغرق منـه مسـيرة نصـف يـوم، ولكـن خوفـه مـن يـوم القيامـة غـير المنتظـر، جعلـه في موقـف المشـلول المنتظـر لمـن يدفـع كرسـيه المتحـرك، إذ لا يمكنـه تصـوّر أنْ قدميـه مشـلولتان أصـلاً. أمـا سـت الشـاي المسـكينة، اللـه وحـده كان يسـتطيع أنْ يجفـف دموعهـا، وهـي تنتحـب خوفـاً عـلى أطفالهـا الذيـن تركتهـم بـلا معيـل. ولكنهـم قـرروا أنْ ينتظـروا جميعـاً، فمـوت الجماعـة عـرس. لا أحـد

يعلم متى ترحل تلك الكائنات الشريرة غير المرئية.

بمنطق غريب: حين يتدافع الناس طول حياتهم نحو وليمة جماعية، يتوافدوا إليها حسب الأقدمية والأهمية، وفجأة يصبح الأصبع الواحد الذي يغرس ظفره في قُبّة الأرز، بمثابة جريمة في حق البشر، هو الأصبع الأوسط. علينا أنْ نفكّر بشكلٍ مختلف!

بل علينا أنْ نعيد للأصبع الأوسط هيبته، بمعنى أنْ يكون حيث يكون.

في الوسط تماماً.

طيب: حين تتشارك رئتك الأكسجين مع زفير طائر زرزور مسكين، هل سيصبح أخاك في التنفّس أم شهيدك في المأساة؟

بهذا المنطق، بدأ الناس يتكافلون فيما بينهم. ولكن هذا لا يمنع من الإعتراف أنهم أصبحوا أنانيون أيضاً. وحسبما هو متوقع، خلت المتاجر من البضائع، اشترى الناس كل ما يمكن شراؤه. هلعٌ عجيبٌ أصابهم، وقد كانوا محقّين في ذلك. لأنّ فور إعلان الحكومة عن حظر التجوّل الكامل، زادت رغبة الناس في التفنّن في الوسائل التي تبقيهم على قيد الحياة لأطول فترة ممكنة. فقد حدث هذا الأمر بشكلٍ مفاجئ للجميع، حتى بالنسبة إلى الحكومة التي تدّعي دائماً أنها تعلم بكل شيء ولديها خططاً إحتياطية، أو بالأحرى، حلولاً متكاملة لأزمات كثيرة متوقّعة. عليك أنْ تختار جانباً آخر حين تسمع تصريحات

الحكومة. هذا الجانب هو الذي يبقيك على قيد الحياة.

بدا جليّاً أنّ العالم عبارة عن كذبة كبيرة جداً. فها هو يشعر بالفزع من الاستمرار في تصديق كذبته. بالفزع من اضطراره للإعتراف بما هو عليه من ارتباك وعجز تام يفضح كل الأكاذيب التي تدّعي قدرة البشر على السيطرة الكاملة على العالم. وبدت الحقيقة جليّة: الأمن القومي ما هو إلا كذبة تافهة.

تركوا إحدى الغرف للسيدتين التعيستين، وفي الغرفة الأخرى، سينام الأعمى والبروف، أما صاحب البيت وصانع الطعام، والوافد الجديد، صاحب الحانوت الشاغر، فقد قرروا أنْ يتركوهم ينامون في الصالة. للوهلة الأولى بدا صاحب الحانوت رجلاً في حاله، ولكنه عندما شاهدهم يحتسون خمرهم المصنوع في البيت أحتج بشدة. يا جماعة الحياة في طريقها الى الفناء وأنتم تغرفون من ملذاتكم، والله أنكم تجلبوا لنا غضب الله، أما يكفي وجود هاتين السيدتين بيننا؟ صاح الأعمى: إحداهما هي صاحبة هذا البيت الذي يؤويك. الأمر الذي يمكن للمرء أنْ يتأكد منه، أنّ الجميع كانوا لا يصدقون ما حدث. بعضهم بدوا مثل الشخص الذي يتلقى رصاصة على صدره، فيصيبه الذهول، فيعمد إلى لمس جرحه لا لكي يضمده، ولكن ليتأكد أنّ ما ينزف منه هو دمٌ فعلياً. يتعطل احساسه بالألم، يفقد حاسة الشم، يصيبه العمى، ولن يبدأ التفكير في إنقاذ نفسه من هذه الفجيعة، دون أنْ يوقن أنها كذلك بشكل قاطع. هذا ما يجعلنا نجد التفسير

المنطقي لأقوال البعض، في بداية هجوم تلك الكائنات الشريرة غير المرئية، عندما كانوا يخرجوا إلى الشوارع ويرددون أقوال من شاكلة: كنا في الشارع وليس هناك ما يؤكد وجود تلك الكائنات الشريرة، يا لها من شائعات مغرضة تهدف إلى زعزعة الناس، وربما تكون محاولة إلهاء من الحكومة نفسها، علينا أنْ ننتبه فهناك بلا شك أمرٌ يحاك في الخفاء. أشخاص مثلهم، بهذا المنطق، كانوا قد قرروا أنّ التحصّن في في بيوتهم محض غباء لا أكثر.

الأسئلة التي كانت تلهث لأجل معرفة الإجابة عن كنه هذه الكائنات الشريرة، كشفت كمّاً هائلاً من التناقض. الكثيرون الذين يشكّكون في وجودها أصلاً، لن تجد تفسيراً للذعر الذي كان يصيبهم بمجرد وجودهم خارج بيوتهم. أنت تخشى شيئاً لا تعترف بوجوده. متناقضة عبثية هائلة تتفوق جدّياً على متناقضة أبيمنيدس. وبإعترافاتهم المسرّبة عبر حالات غامضة من الذعر، تجدهم عالقون في شباك تلك المتناقضة. كذبة صادقون. عندما كتب كاتب الخيال العلمي إسحق عظيموف قصته السّم القاتل، سرد فيها حكاية شاب في محطةٍ فضائيةٍ ما. شعر الشاب بالملل وهو في ذلك الفضاء غير المتناهي. فأخذ يتسلّى مع الكمبيوتر المركزي، عبر سلسلة حوارات وأسئلة كثيرة. يسأل الكمبيوتر، فتأتيه الإجابة مسرعة، فيجنّ جنونه. يتذاكى، فيطرح على الكمبيوتر متناقضة أبيمنيدس القاتلة، فيحتار الكمبيوتر، ويسخّر كل طاقاته لحل هذه المعضلة.

وفي النهاية تتعطل كل وسائل الحياة في المحطة، بتوقف انتاج الأكسجين والطاقة وحتى الأجهرة التي تحافظ على درجات الحرارة، لأنّ الكمبيوتر الذي يدير كل هذه الأمور، منشغلٌ بأمرٍ آخر. وكأنك تطرح السؤال التالي: أنا محام. كل المحامين كاذبين. فهل أنا صادقٌ في هذه العبارة أم كاذب؟

* * *

ورد في أخبار العرب أنّ أبو البراء بن مالك بن جعفر، سيد بني عامر بن صعصعة، قد ذهب إلى الرسول محمد بهدية، إلا أنه رفض قبولها إلا بعد إسلامه، ثم عرض الرسول عليه الإسلام، وأخبره بما فيه فلم يسلم ولم يبعد، وقال أبو البراء: يا محمد إنّ ما تدعو إليه شيءٌ جميل، ثم عرض عليه أنْ يبعث معه قوماً يعرضون على بني جعفر الإسلام، ويفقهونهم في الدين، فأبدى الرسول خوفه، إلا أنّ أبا البراء طمأنه وقال له: أنا جارٌ لهم. فبعث إليهم قوماً من أصحابه، فتعرّض لهم بني الطفيل يوم بئر معونة فقتلهم أجمعين، فاغتمّ أبو البراء غمّاً شديداً لنقض عامر بن الطفيل ذمته، ودعا بني عامر إلى قتله، فلم يجيبوه، فشرب الخمر صرفاً حتى مات، وهو القائل: لا خير في العيش وقد عصتني عامر!

وعلى سبيل اِزجاء الوقت، وهذه حقيقة غير مهمة لأنّ الوقت بدا أنه لن ينتهي وليست له قيمةً تذكر حتى يبدّد بالانتظار. قررت السيدة ذات العينان المجنونتان أنْ تكسر حدة الرّتابة

بسؤالها لهم عن سبب عزوفهم عن الزواج. لم يجبها أحد، بل أخذوا يحدّقوا إليها صامتين، فقررت أنْ تغيّر صيغة السؤال، على أنْ يجيب كل واحد منهم بما يراه مناسباً. صمتت لترتّب أفكارها لنحو دقيقة ثم سألت: حسناً ما رأيك في الزواج يا بروف؟ صاح صاحب البيت، سأجيب أولاً. تفضّل. قالت له. الزواج هو كأنك تسكر فقط لتتمكن من النوم، وهذه غاية قد تغنيك عنها أية أقراصاً منوّمة.

ابتسمت في البدء، وبعد ذلك انفجرت ضاحكة، حتى بانت غمازةً ساحرة في خدّها الأيسر، لم تكن موجودة من قبل، أو لم تجد الفرصة المناسبة لكي تظهر. إجابة فيها حكمة شديدة، لقد أعجبتني على الرغم من عدم إتفاقي مع ما ذكرت. غمزت إلى صانع الطعام وهو الآخر بدا مستعداً، وقد أثارت ضحكتها شهيّته للكلام. قبل عدة سنوات سألت البروف لماذا لم يستمر في زواجه، ووقتها واتتني فكرة غبية وفكرت في الزواج، فأجابني: من أقوال جونسون، يتزوّج الرجل إذا فقد وعيه، ويطلّق إذا فقد صبره، ويتزوّج من جديد إذا فقد ذاكرته. كلّ هذه الأمور الثلاث، أنا واثقٌ أنها لا تنطبق عليّ.

يشعرون بالحرارة الشديدة، فينهض صانع الطعام، فيفتح مصراعي النافذة المغلقة، ويتوقف مسافة يستجدي تيار الهواء البارد. يتسمّر مسافة وكأنه يراقب هذا العالم الذي تتضاءل فرصه في الإستمرار بشكلٍ يهزأ من فكرة الخلود التي ظلت تؤرق البشر منذ أنْ وجدوا في العالم.

سألت وقد بدا عليها النعاس: لقد مرّ الوقت سريعاً، متى

تنامـون بالضبـط؟

نحن لا ننام أبداً، ولكن يغمى علينا!

انـبرى الأعمـى ضحـكاً: السـهر مـضرٌّ يـا جماعـة، أسـكر إلى الصبـاح ولكـن لا تسـهر. كـما قـال لاعـب كـرة قـدم شـهير. وبـدون ذكـر أسـماء، هـذا الرجـل، أشـار للـبروف، هـذا الرجـل هـو أقربنـا إلى المـوت. عندمـا كنـت صغـيراً، لسـت صغـيراً جـداً فـلا أميـز الأشـياء، أنـا متأكـدٌ أننـي تجـاوزت السادسـة عـشر وقتهـا، كان هنـاك حفـلاً في بيـت جيراننـا، فذهبـت لـكي أشـاركهم فرحتهـم وأحظـى لنفـسي بوجبـةٍ جيـدة. بعـد أنْ أكلـت، جلسـت أتسـمّع الغنـاء، وأتجـاذب أطـراف الحديـث مـع أبنـاء الحـي. سـمعت صـوت فتـاةً غاضبـةً تتحـدث بحـدّةٍ مـع رفيقتهـا، فعرفـت مـن صوتهـا أنهـا بنـت جـيراني أصحـاب الحفـل. مـا فهمتـه أنّ الفتـاة الأولى كانـت تريـد إبعـاد صديقتهـا عـن حبيبهـا، فهـي تخطـط لـكي ترتبـط بـه كـما ذكـرت، وقـد يتزوجهـا إذا سـارت الأمـور بشـكل جيـد. أرادت الأخـرى أنْ تغيظهـا، مدعيـة أنهـا عـلى علاقـة مـع ذلـك الفتـى، بـل هـما يخططـان أيضـاً لتتويـج علاقتهـما بالـزواج. كل واحـدة تكيـل الاتهامـات لرفيقتهـا، والأمـور مـا بـين شـدّ وجـذب، حتـى كادت أنْ تخـرج عـن السـيطرة، فتتعـاركان. كنـت أراقـب مـا يحـدث، وأتخيـل ملامحهـما مـن صوتيهـما، وإنْ كنـت منزعجـاً مـن حدّتهـما غـير المـبررة. قالـت بنـت جـيراني: مـا أشـدّ وقاحتـك يـا فتـاة، ألا تدريـن أننـي أحبـه؟ ولكـن الأخـرى انـبرت لتضحـض إدِّعاءهـا، وأكـدت عـدم صحـة مـا تفوهـت بـه: بإمـكاني إطلاعـك عـلى الخطابـات التـي ارسـلها إليّ، وحالمـا تقرأيهـا سـتعرفي أنـه لا يريـد في الواقـع سـواي. اغضبـت هـذه الحجـة الدامغـة صديقتهـا، لهـذا

انفجرت غاضبة، وكنت استطيع تمييز اهتزاز حبالها الصوتية، الأمر الذي يؤكد أنها ستجهش بالبكاء في حال خسارتها لهذا النزال الصوتي. لن يتزوجك أبداً، أنا لا أصدق كل ما سمعته منك أيتها الكاذبة. رجاء كفي عن ازعاجي، لقد وعدني بالزواج فور حصوله على فرصة عمل، بالطبع بعد أنْ يكمل الدراسة. بدا نشيجها واضحاً مزعجاً، فتأثرت وكدت أبكي أنا الآخر. قالت الفتاة: أتمنى أنْ لا تتزوجي سوى هذا. لم أعرف من تقصد ولكن لم أهتم إلا بمواساتها لو سنحت لي الفرصة. ردت عليها: هذا؟ هل جننت؟ أنا أتزوج هذا الأعمى؟ أؤكّد لكم أيها الناس، لقد انتفضّ قلبي بشدّة، لم أكن أدري أنني بشعٌ إلى هذه الدرجة، وأؤكّد لكم أيضاً، على الرغم من أنني أعرف طريقي إلى المنزل جيداً، ولكن تعثرت مراراً بعددٍ من كراسي الحديد وسقطت ثلاث مرات على الأقل، الأمر الذي جعلني أغضب بشدّة. وهذا ما جعلني أقرّر منذ ذلك الوقت ألا أتزوّج مطلقاً. صمت لبرهةٍ ليضيف: بالطبع لا أُلقي اللوم على كراسي الحديد، بل على قلوبٍ من الحديد!

ترقرقت العينان المجنوتان بالدمع، وبدا أنّ قلبها لا يتحمّل هذه الورطة العاطفية السخيفة، ورطة أنْ يسكنك الإكتئاب دون أنْ تكون طرفاً في القضية، لمجرّد سماع قصة متكررة بشكلٍ أو بآخر من أحدهم، فأسرفت صاحبتهما في الحزن، وتورّطت في كيفية مواربته. يا له من أمرٍ مؤسف يا صديقي. ردّ عليها: ليس عليكِ أنْ تتأسفي، فهذا هو قراري، مع العلم أنني توقّفت عن التفكير في هذا الموضوع منذ سنوات طويلة.

هل أنتِ مختونة؟ سألها صانع الطعام بدون مناسبة. التفتت

نحوه بشكلٍ حاد والتمعت عيناها وهي تتفرّس فيه، وكأنها غير مصدقةً لسؤاله السخيف. ضحك بملعنةٍ فاجرة، وقال: لقد كدت أنْ أدخل السجن بسبب شيء مشابه. شتمت أحدهم بابن الغلفاء، فذهب إلى الشرطة وشكاني، استدعوني وخرجت بكفالة شخصية، بعد أنْ تمّ تحديد وقت المحاكمة. عندما عدت إلى البيت، وجدت غريمي الشاب ذاك، وقلت له: أعترف أنني قلت لك كذا وكذا، ولكني في المحكمة، سأقول لهم هذا مجرد وصف، ولا يعتبر شتيمة، ولو كنت يا صاحبي تصرّ على أنّ أمك ليست غلفاء، فلتثبت هذا في المحكمة. وفي اليوم التالي ذهب الشاب وعاد بعد أنْ شطب القضية مشترياً سمعة والدته. تطلّعت في وجهه وقد أكلها العجب فسألت: ولكن هل لي أنْ أعرف ماهي علاقتي بالأمر حتى تسألني هذا السؤال الشخصيّ؟ ردّ عليها ببرود سخيف: ليس لك علاقة، سمعت أنّ جدِّي في زمن دولة المهدية قد رفض أنْ يزوّجوه أميرة إنجليزية بالغة الحسن. أطلق الأعمى ضحكة ساخرة مقاطعاً: يا رجل إنها كذبة مثل كذبة وعد الخليفة للأمير يونس الدّكيم بتزويجه من ملكة بريطانيا، والله إنّ الخمر قد أفسدت عقلك فعدت لا تقدر أنْ تميّز بين الإنجليز والمايونيز. تشجّعت السيدة ذات العينان المجنونتان لسؤاله: ولم يرفض جدّك زيجة مثل هذي؟ هل كان مرتبطاً بأميرة نوبية مثلاً؟ قطعاً ليس هذا هو السبب. صمت برهة ليضيف: قال جدّي أنّ الزواج من الغلفاء مفسدة لا يقبلها الله!

أنت لئيمٌ وحديثك مضرٌّ كالخمر المضروبة.

وأنتِ شهيةٌ أكثر من طبق مقبلات في فم جائع سكران.

ألا تتعب أبداً؟

مشوار العودة أكثر ما يكرهه الطريق.

كان من الأفضل تجاوز هذه المحطة، إما بتغيير دفّة الحديث أو بالصمت المطبق، فقررتْ مناكفة البروف الذي ظلّ يراقبهم صامتاً: ألم تفكّر في عمل شيء مفيد في تلك الأوقات التي لا تعمل فيها؟ وهذه معضلة أخرى! كيف لا أعمل في شيء مفيد؟ عندما تسأل أحد، هل تعمل؟ فيقول لك أنه متفرغ مثلاً، فهل كنتِ تعلمي أنّ التفرّغ هو من أنبل الأعمال وأشقّها في الوقت ذاته؟ كفاك هراءً. تجاوز قلة ذوقها قائلاً: لا على العكس، التفرّغ هو إشغال الفراغ وجعله شيئاً ذا قيمة. بعد ذلك يتمكن المرء من التدبّر، التفكير، التأمّل، وبالتالي سهولة معرفة سرّ الكون. وما الخلاصة من كلّ ما ذكرت؟ كفاك حزلقة. الوعي كذلك بحاجةٍ إلى بعض الجنون. إنْ ظلّ يسترسل في عقلانيته الباردة.

صمت وأخذ يتمعّن في وجهها المتعب، كانت تتنفّس برويّة، ولكنه لاحظ أنّ صوت تنفّسها يجعلها أشبه بغطيط الهرّة النائمة. يتسرّب الصوت من صدرها بهدوء لا تزيد قوّته عن واحد ديسيبل، لا تفضح مُواؤه إلا الأُذن المتلصصة. في مرحلةٍ ما من حياتها، تقديرها الآن، أكتسبت صدراً ممتلئاً. كانت ترتدي بلوزة وتنوّرة باللون الأسود، ولكن لونهما صار متّسخاً تتناثر عليهما نتف قطن الفراش، إذ يمكن ملاحظة أنها لا تمتلك أي ملابس في هذه الشقة.

أخذ الأعمى يدندن بالعود ويغني:

ادِرْ الكأس على العشاق صفوا ومدامه
يا حبيب القلب والروح وياروح الندامة
أيها الرافل فيّ مجداً من الحسن دواما
ماست الاغصان لما عشقت منك القواما

فلما بُحّت حنجرة المغني بفعل أنفلونزا النشاز، فقال البروف: أحببت الحرية لهذا أخترت أنْ أكون عازباً. تبسّم الأعمى وقال: تزوّجها سُكُرجية، لا تصرخ في وجهك محتّجة، إنّ رائحة أنفاسك كريهة. بغض النظر عما قاله هذا، ولكنك أصبت يا بروف. الفراق صديقٌ عزيزٌ للعشاق. هي نارٌ تفجُر في اشتعالها، وتخمد بشكلٍ لا يصدق. وإذا تدبّر المرء في قصص العشاق، دائماً ما يكون السّم ترياقهم. فدورات حياتهم أقصر من حياة نبتة بعد فترة مطر شحيح. فهذه الحمى التي تؤججها لحظات العشق الأولى ستداويها الأيام. وما يحسّه الشخص بعد ذلك في حياته الزوجية، ما هي إلا بعض الأعراض الجانبية لتلك الحمى، ستزول بمرور الوقت. الزواج حمى أدعو الله أنْ لا يصاب بها عاشق!

وبعد أنْ طرقعت كؤوس الصمت مراراً، قالت السيدة ذات العينان المجنوتان: عندما كنا في مدينة ملكال، ولست واثقة من كوني عشت في ملكال ذات يوم، إذْ جرت العادة التي كان يقدسها أبي: أنْ يصيّحَ ديكه في ملكال وتبيض دجاجته السمراوات، بين الأعشاب، على رؤوس البيوت، تحت السقيفات وفي كلّ مكان. ولكن هذا ما تزعمه أُمِّي، وما تقوله يبقى

غير قابلٍ للتصديق. أكتشفت ذات يوم أنني كنت ثمة زيتونة جامحة السواد في مرآةٍ عريضةٍ من الجبن المتخثر، وعندما غرست شوكة نظراتي في ذات الإناء أتشهى، بكيت قليلا، وقلت: يا رب لماذا وهبت وجهي زيتونة لتغمسه، بلا داع، في صحن جبن متخثر باهت البياض؟

كرهت نفسي مقدار أنْ تنزلق دمعة إلى مثواها الأخير من اللا مبالاة بأضغاث أحزان! وبعدها، ولعلَّ في الأمر حكمة، حملت زيتونتي، ومضيت، وشيدت من صورة أبي المأهولة بنزواته الشرعية، تمثالاً من الفحم الذي تسخّمت على حوافه آمال وأمانٍ ورماد. أراحني الأمر. لست واثقة. لست متشككة. لست. صمتوا وقد حطّت الغربان الخرساوات على رؤوسهم. أضافت وزيتونتها الفارهة تجدِّف في بحر غزالها: لم أزل أتذكر قول والدتي الحكيمة، التي لم تشاطرني البكاء وكأنها استنفدت حصيلتها من الدموع منذ عهودٍ سخيّةٍ من النحيب. كانت أُمِّي تفرغ ابتسامتها في فناء الفراغ، وقالت: يا ابنتي: الحليبُ حليبٌ، والزيتونُ زيتون! لا ينبغي أنْ تحلمي برشفة حليب ليست لك، وما بإمكان البقرة أنْ تضع حمالة الصدر على ضرعها لتصنع من حليبها جبنة لافاشكري. ابتسمت وضحكت وكفى! ثم غادرت ملكال إلى العاصمة.

صارت تثرثرُ كمثانةٍ محتقنةٍ بالجعة الطازجة.

استقللت بعد سنوات عديدة أول فرصة للسفر بعيداً، فبعد

أنْ أبرمت الصلح مع جسدي ولوني، أكتشفت أنني أتجمد في مقبرة ثلجية. تزوّجت ذلك الرجل الذي حدثتكم عنه، فشرع قلبه في الإنتحار دون أنْ يكتب له وصيةً، وأكتشفنا كل ذلك بفعل الصدفة، كما أخبرتكم حين قررنا الإنجاب. لا داع لباقي الحكاية، بعضها بِتُّ لا أرغب في تذكره أصلاً. كل ما أودّ قوله، أنني سئمت الحياة في المنفى وعدت لأسكن في هذه الشقة، فلم أحتمل الوحدة أكثر من ذلك، وبعدها انتقلت إلى بيت الأسرة الكبير. كان البروف يحاول التذاكي على ثرثرتها الرخيصة بإفتعال الإنصات، وبالفعل شعر برغبةٍ ملحّة في النوم. غمزت وسألته: يبدو أنّ السّكَر زغاريد الجنس إلا في هذا المكان أليس كذلك؟

لا داع للموارية، تعلمت من الرياضيات أنْ أختار الوتر لكي أصل أسرع. ولكن يؤسفني أنّ أؤكد لكِ أنّ اعتقادك صحيحٌ تماماً.

وبذكر الرياضيات يبدو أنني قد علقت بداخل المجموعة فاي! أريد أنْ أترككم، هل يريد أحدكم أنْ يرافقني؟

لا تنسي الأمر المحظور رقم عشرة، ضع رأسك في المكان الذي تشرب فيه كأسك الأخير! غمغمت متظاهرة بالنظر بعيداً: أحسّ برأسي ثقيلاً وكأنني دخنت الحشيش.

إياكِ أنْ تفعلي. بالمناسبة لطالما تساءلت، إذا دخنت البنقو وشربت بعد ذلك، هل أكون سكرانة أم مسطولة؟

سكرانة بالطبع، فالعقل يعرف ما ينفعه وما يضرّه. السائل الأبيض النبيل والدخان الأزرق الملعون لا يجتمعان أبداً.

فهو كالملحد يصير عدواً للدين الذي تركه، أكثر من كل الأديان الأخرى التي لا يؤمن بها.

بنقو وعرقي؟ ومن يريد أنْ يملأ رأسين في الحرام؟

تطلّعت في وجهه بعمق، فسألته بدون مواربة: أخبرني لماذا لا تعيش مع امرأة؟ أشعره السؤال ببعض الضيق، فصمت مقدار أنْ يجفّ الشراب في حافة الكأس: كنت لدى واحدة، ولكني فارقتها لأنّ فراشنا صار بارداً، وصرنا نتشاجر أكثر من اللزوم، لذا ليست مفاجأة إنْ قلت أنّ المواجهة بيننا صارت رجل لرجل. عبس وجهها وكأنه اختزل جميع النساء في شخص زوجته أو صديقته السابقة. هكذا بكلّ بساطة يا بروف؟ هل كنت تخشاها؟ على العكس، الخوف من المرأة يتطلّب تأريخاً، وما كنت صاحب تجارب سابقة. لم يكن يعنيني سوى كلباً وجدناه سوياً، فأخذناه إلى البيت واهتممنا لأمره وما زلت أفتقده. أكتشف أنّ لها ضرساً ضائعاً حين صاحت: يا للرجال! لو كنت مكانها لكتبت في الصحيفة ذلك الإعلان الشهير: رجلٌ وكلبٌ ضائعان، توجد مكافأة جزيلةً لمن يعيد الكلب. ضحك حتى كاد أنْ يفرغ مافي جوفه، لولا أنه تذكر أنّ جوفه أصبح خالياً. لو قرأت الإعلان لرجعت لنيل المكافأة! أضاف: هل تدري لماذا تبدين فاتنة؟ لم ينتظر ردّها بل قال: المرأة التي تزوجت عدة مرات، مثيرة أكثر من المتزوجة أو الأرملة الشابة،

فهناك أحمق آخر يشتهي طعم تلك الحلوى التي تذوقها من سبقوه وهو يعلم أنها مسمومة!

تعرف أنه لم يبح بالحقيقة الكاملة، أحسّت أنه أشدّ بخلاً من سكير خرمان يكتشف أنك تنظر لكأسه الأخير. فسأله وهو يحدّق إلى عينيها مباشرةً: هل تكتمين السرّ؟ هذا يتوقّف على كونه سرّاً، فبعض الأحاديث نشرها أفيد من سترها! ولكني دعني أسألك: ألم تفكر في تجربةٍ أخرى معها؟ بمعنى؟ لا يستطيع الحظّ أو التوفيق أنْ يغيّر أقدار شخص مصمّمٌ على الفشل. بإمكانك أنْ تحاول مرةً أخرى. يا سيدتي لكي تبدأ من الصفر، عليك أنْ تعثر على الصفر أولاً! هل لديك فوبيا من الفشل؟ فالفشل يولد الفشل! هل هذه المقولة من أقوال أرسطو؟ لا فيلسوف آخر كان وزيراً في الحكومة!

رمقته بنظرةٍ خبيرة وسألت مباشرة: هل خنتها؟ أشاح بنظرته بعيداً وكأنه لا يريد أنْ يجيبها، ولكنّ صوته بدا أشجع من قلبِ المنتشي وهو يقول: في الحقيقة لم أقصد خيانتها، فالقرارات التي تنتهي بأحدهم على فراشٍ غريب، لا يكون مسؤولٌ عنهن قلبه وعقله وحدهما، ربما يكون للقوى السفلية رأياً آخر. أي شخص يكون هدفه الوصول إلى قمة الجبل، عليه أنْ لا يلتفت للأحجار المتساقطة منه، الجبل نفسه لن يفتقدها. غمغمت بغضب: هذا يقودنا إلى الحقيقة المرّة: كل الرجال خائنون! كلامك صحيح نظرياً، ولكنّ الخيانة فعلٌ ثنائيٌ، وبهذه الطريقة يصبح فعلاً جماعياً. الأمر بوضوح الشمس كما ترى، ولكن لن يستطيع أحد النظر إلى الشمس مباشرة! لا فائدة من هذا الكلام الآن. لن تستطيع التخلّص من الماضي كلياً. صمت لبرهةٍ

قبل أنْ يجيب: ما نحسبه مضى، ليته مضى! ولكن عليكِ أنْ تعلمي، إذا همست القُبلة: اقتفِ أثري في الشفتين، من العار أنْ لا يتمشى لسانك عليهما.

وجهت نظرة خاطفة بإتجاهه وملئت رئتيها بالهواء. من رئتيها كان يتراءى خيطُ دخان، تنزفُ آهته، يتبعثرُ، فيشتِّت انتباه الكأس الأخير للحياة. يمتصّه فحسب. يكحُّ صدرها محتجاً. صرير هياجه يُنبِيك عن اندثارِ الرّماد في المنفضة. ولكن هيهات يا عُمر، فما زال في الموت عدةٌ من أنخاب. الأفكار تترنّح. نفثت آهةٌ ترتدي ثوباً من الدانتيل الأحمر وتتمشى حرى على رصيف انتظارها. كان طعمها ماسخاً كعلكةٍ تحسد لسانها على حبسه الانفرادي، فباتت الكلمات قيد الإقامة الجبرية في سجن ليلها الوحيد. قالت لخفقةِ قلبٍ لاعبتها وانطفت: يبدو أنّ الرِّيح قد نفخت الروح في سراج الجسد، فخمدت لا ريب شعلته. تراقبه، على لسانه تمهلت رشفة خمر، فصار وجهه أضيق مما كان. تمهَّلت حتى تسمح الحنجرة بقبول حتمية أنْ يتبرّع عنك أحدهم لتجرّع كأسك البِكْر. قبل أنْ يتكوّن في خيال التمر أو العنب. كحبلٍ سرّي يسيلُ ريقها كنيلٍ من الآهات، كان لصدرها نزقٌ لا يبلغه جنون الخمر. يتطلّعُ لفورانِ أنفاسها ككأسٍ من الجعة، ويغمزُ له نهدها وكأنه يتحدّي أناملَه اللاهثة، فتمانع في استسلام.

* * *

بتجاوز ما سيحدث، المنطق يقول، أجعل أصدقاؤك قريبين منك، وأعداؤك أقرب. تفقّد حتى من كنت لا تودّ رؤيته، المكالمة التي تجريها لمواساة أحدهم، أفضل من دعواتك التي لم يسمعها. أقترح نخباً للفناء، فالعالم نفسه منذ أنْ تكوّن، باشَر مباشرةً سعيه الحثيث الى العدم.

عندما تتفقّد ما حولك، تكتشف أنّ الوحشة القاتلة تطوي المكان وكأن العالم قد عاقر بول كلب، فمات بثمالةٍ مقرفة لأقصى درجات النباح.

أيها العالم القبيح: متى تتوقف عن التلويح بأنخاب موتاك؟ حين تغير النخلة نشاطها وتتوقف عن طرح التمر.

إجابةٌ قاطعة ولاذعة مثل جرعة تكيلا.

طيب لا توجد مشكلة! أيها العالم المسكين: متى أين تدفن جثث موتاك؟

في قلب الكأس!

وما ذنب الكأس؟ فقلبه من الزجاج والموتى روائحهم نحاسية؟

كانوا يتساقطوا واحداً واحداً. الكائنات الشريرة غير المرئية تقتنص أرواحهم البائسة. حين مات الأعمى مسكيناً كما كان، حزنوا عليه كما ينبغي. أغرقوه بدموعٍ لن تشفع له، فتفرّق

النـاس بعـد أنْ واروه الـثرى، وهنـاك في المقـبرة أجتمعـوا. بكـوا بلوعـةٍ مهلكـة، وكانـوا يصبّـون كؤوسـهم وأمـا كأس الأعمـى فقـد كان يشربـه تـراب القـبر. مفارقـة عجيبـة تماثلهـا فقـط حكايـة الملـك العـربي جذِيمـة الأبـرش، نديـم الفرقـدان، فقـد كان يـشرب كأسـاً ويصـبّ لهـما كأسـين. فهـم كـما نعلـم، سـكارى شرهـون يسـألون عـن الزيـادة قبـل أنْ ينزعـوا سـدادة القـارورة الأولى.

فكانوا يضحكوا ويبكوا في نفس الوقت كسكارى سودانيين.

ناحـت السـيدة ذات العينـان المجنونتـان سـابقاً. بكـت فصـارت عينيهـا كأسـا ويسـكي ممتلئـان. وعـلى الرغـم مـن نحلهـا، إلا أنّ مؤخرتهـا بـرزت فـكادت أنْ تفـارق عودهـا.

عـلى الرغـم مـن أنهـا تبـدو هادئـة متماسـكة كالنبيـذ، إلا أنّ فورانهـا الخفـي يجعلهـا أقـرب إلى زجاجـة بـيرة مختومـة، فهـي ربمـا تملـك نفـس مُكـر وغـدر البـيرة حـين تسـتهتر بهـا. امـرأة نضجـت عـلى مهـل حتـى في نزواتهـا المخبئـة، وبتماسـكها ذاك، لا ترمـي لـك بعربـون عنفوانهـا دفعـةً واحـدة. تظـلّ صامتـة لفـترات، ويبلـغ جنونهـا ذروتـه أحيانـاً ويطفـح كيلهـا، فتنفجـر كزجاجـةِ شـامبانيا في احتفـالٍ همجـيّ لأوبـاش لا يعرفـون قيمتهـا.

اسـتبدّ الغضـب بصانـع الطعـام. ثـار مثـل كأس فـودكا مغشوشـة. عندمـا يغضـب صانـع الطعـام، يصـير مثـل زجاجـة مـشروب غـازي مرجوجـة جيـداً، تطـير رغوتهـا أول مـا تفتحهـا. عـلاوةً عـلى ذلـك، فهـو ثرثـارٌ مزعـجٌ أكـثر مـن طرقعـة أنخـاب في مهرجـان للغوغـاء.

أخـذ يطلـق اللعنـات: اللعنـة عـلى هـذه الكائنـات الشريـرة غـير المرئيـة، فهـي تتجـوّل بيننـا، تتسـمّع إلى أحاديثنـا، وتتحـيّن غفلاتنـا لتزهـق أرواحنـا المسـكينة. تسـأله السـيدة ذات العينـان الذابلتـان، تصـير جثـة متحركـة مـن الرعـب، فـلا يطمـئن قلبهـا. فـلا يكـذب عليهـا، إذ كانـت ردوده أشـدّ مـرارةً مـن الـكأس الأول.

يجعله الخوف أعمى. يجعله العمى أخوف.

يثمـل ويتخبـط في المـشي حتـى تشـعر الأفاعـي بالغـيرة من مشـيته. قبـل أنْ تثمـل، تأكـد أنّ تـزوّد الطيـار الآلي بالإحداثيـات الصحيحة.

يبـدو الذهـول عـلى ملامـح الـبروف. كانـت كل سـاعة تمـر تزيـد عمـره مئـة عـام. هـل كان يشـعر بملمـس احتـكاك تلـك الكائنـات بجلـده؟ هـل سرّبـت إلى جسـده قشـعريرتها؟

في كلّ الأحوال الموت يقترب.

يسـمع سـائلاً: هـل ندمـت؟ فيقـول نعـم. كالـذي كان يخـشى غـدر الشرطـة، فيطلـب حصـةً صغـيرةً مـن الـشراب، ولكـن حـين تقبضـك الشرطـة، سـترمي بـك في السـجن، سـواء أنْ شربـت برميـلاً أو لمجـرد أنْ فاحـت مـن ملابسـك رائحـة الخمـر.

يشعر بالرضا والسكينة. وربما قلة الحيلة.

الـبروف يمتلـك حكمـة النبيـذ المعتـق في الجِـرار. يجعلـك تشـعر أنـه قـادمٌ مـن الأقبيـة المظلمـة في أغـوار المـاضي. مزاجـه رائـقٌ كأنّ مـن تجـري في عروقـه كانـت شـامبانيا أرمانـد دي بريجنـاك باهظـة

الثمـن.

يسأله صانع الطعام: هل سنموت هكذا ببساطة؟

الموت أوفى من كأس الطريق.

بمعنى؟

الموت هو رفقتك الأبدية التي لن تتخلى عنك.

شهق ثم اندلق على الأرض مغادراً.

انسحب.

شـخصت عيـون البقيّـة. صانـع الطعـام، السـيدة ذات العينـان الميتتـان، صاحـب الحانـوت، تلـك المـرأة الضيفـة سـت الشـاي، وصاحـب البيـت.

يـا لـه مـن نحـس! خمـر ونسـاء وأشرارٌ لا نعلمهـم يطاردوننـا، ليتنـي لم أقبـل دعوتكـم. ولولـة صاحـب الحانـوت الشـاغر كانـت منتظـرة، ولكـن الجمـود العجيـب الـذي بـدا في عيـون المرأتـين، كان شـيئاً محـيِّراً.

أخـذ صاحـب الحانـوت الشـاغر يقلـب كفيـه عجبـاً وهـو يتمتـمُ بـكلامٍ مبهـم. ولكنـه اسـتطاع أنْ يقـول: لـو كان فيكـم رجـلاً طاهراً، لصـلى معـي حتـى يبعـد الله عنـا بـلاء تلـك الكائنـات الشريـرة غـير المرئيـة. قـال لـه الأعمـى: مـن فضلـك صـل عنـا. فصـلى.

وكان صوته قبيحاً لا يحتمل، وبعد فراغه من الصلاة والدعاء، أطلق الأعمى ضحكة ساخرة وسألهم: تتذكروا عندما منعني البروف من الغناء؟ أجابه البروف بنفسه: مكافحة غناؤك، لا تقل أهميةً عن النهي عن الفحشاء والمنكر. سمعهم صاحب الحانوت الشاغر فسأل: ماذا تقصدوا بحديثكم هذا؟ المقصد واضحٌ، الحمد الله أنك لا تؤذن للصلاة، لأن صوتك هذا لن يشجع أحد للذهاب الى المسجد.

فقال صاحب الحانوت الشاغر دعوني أحكي لكم حكاية: يحكى أنّ أحد السلاطين شعر بضيقٍ شديد، فنادى رئيس الحرس وأخبره بضيقه، وكان من عادة هذا السلطان أنه يقوم بتفقّد رعيته متخفياً. قال للحارس: دعنا نخرج نتمشى قليلاً، فسارا حتى وصلا إلى حارةٍ على أطراف المدينة، فوجدا رجلاً مرمياً على الأرض، كان الرجل ميتاً والناس تمرّ من حوله دون أنْ يهتموا به، فنادى عليهم، فاجتمعوا، وهم لا يعرفون أنه السلطان. فسألهم: كيف مات؟ ولماذا تركوه هكذا وأين أهله؟ قالوا: هذا فلان الزنديق شارب الخمر. فقال السلطان: أليس هو من أمة محمد عليه الصلاة والسلام؟ احملوه إلى بيته، ففعلوا وعندما رأته زوجته ميتاً أخذت تبكي بشدّة. ذهب الناس جميعاً وبقي السلطان ورئيس حرسه، وخلال بكاء المرأة كانت تردد: رحمك الله يا ولي الله أشهد أنك من الصالحين. تعجب السلطان وسألها: كيف يكون صالحاً والناس تقول عنه كذا وكذا حتى أنهم لم يكترثوا لموته ولم يحملوه إلى

هنا إلا بعد أنْ أمرتهم؟ فقالت: لقد كنت أتوقع سؤالك، إنّ زوجي كان يذهب كل ليلة إلى الخمارة حتى يشتري ما استطاع من الخمر ثم يحضره إلى المنزل ويصبه في المرحاض ويقول: أخفّف عن المسلمين. ثم كان يذهب إلى من تفعل الفاحشة ويعطيها المال ويقول هذه الليلة على حسابي اغلقي بابك حتى الصباح، ويرجع ويقول الحمد لله لقد خفّفت عنها وعن شباب المسلمين. فكان الناس يشاهدونه يشتري الخمر ويدخل على المرأة، فيتحدثون عنه ويظنون الظنون. فقلت له ذات مرة: إنك إنْ متّ لن تجد من يغسلك ويصلي عليك ويدفنك من المسلمين، فضحك حينها وقال: لا تخافي سيصلي عليّ سلطان المسلمين والعلماء والأولياء. فبكى السلطان وقال: صدق والله أنا السلطان، وغداً نغسله ونصلي عليه وندفنه، وكان أنْ شهد جنازته مع السلطان العلماء والأولياء والصالحين.

الحياة خارج هذا المكان، لا أحد يدري عنها، فهي تثير من الرعب والغموض ما لا يمكن تصوره. لا أحد فيهم يريد أنْ يسأل. ليس التزاماً أعمى بتوجيهات الحكومة التي قالت على كل شخص أنْ يهتم فقط بنفسه. لأنّ هذه الظروف تسمح بالأنانية والتفكير فقط في الذات. قالوا انسوا أهلكم وأبناؤكم. دعوهم يتدبروا أمورهم. الشوارع موحشة خالية من الناس. صار التسكع هو الهواية الأكثر خطراً في الكوكب. يوسوسُ العالم مرتاباً في أمره، هل أصابته هلوسة المساطيل؟ أتراهم نفخوا في صدره لعنتهم الزرقاء ففقد وعيه؟ ما كانوا متأكدين

مـن حدوثـه، أنّ لعنـة الزهـرة الشريـرة قـد حلّـت عـلى كوكـب الأرض، فجـنّ جنونـه.

مـا كان بإمكانـك أنْ تغـرق في بحـر عيونهـم، دون أنْ تشـعر بالشـفقة عـلى الحيـاة. ولكـن تـأبى تلـك العيـون أنْ تسـترجع أي ذكـرى، أو تبـوح بـأي قـدرة تعبيريـة مفهومـة. ربمـا كانـت تصـدر منهـم رسـائل مبهمـة، إلى أنـاسٍ مـا، وربمـا تلقـي اللـوم عـلى تلـك الكائنـات الشريـرة غـير المرئيـة التـي أعلنـت الحكومـة عـن سـيطرتها عـلى عـالم البـشر. ربمـا كانـت تحـدّق في الجـرف الهـار الـذي انفتحـت فوّهتـه للتـو. ولعـل السـبب يكمـن في أنّ غريـزة الخـوف حـين تعجـز عـن الدفـاع عـن الحيـاة، تتخطـى المراحـل، تحـرق سـفنها، وتغـرق في بحـر سـكينةٍ أبديـةٍ راضيـة.

صـار بـاب الشـقة جـسراً يعـبره الداخلـون إلى مغـارة المـوت. دخـل شـخص فتبعـه ثـان. عـشرة، مئـات، آلاف، أضعـاف أضهـاف، ثـم يستحسـن أنْ تتوقـف عـن الحـصر. كيف اسـتطاعت هذه المسـاحة أنْ تسـعهم جميعـاً؟ صـاروا يتسـاقطوا هـم أيضـاً. يتكوّمـوا فـوق بعضهـم، أجسـادهم تتناثـر، وكان المـكان يفتـح فمـه القبيـح الـذي بـدا بـلا أسـنان، ويلتهـم كل مـن يسـقط، بالـدور، بترتيـبٍ مخيـف. قـال رجـل كهـل: عندمـا كنـت صغـيراً، سـمعت رئيـس الحـي يأمـر النـاس بجمـع التبرعـات لبنـاء مقـبرة جديـدة، وبعد سـنوات عديدة مـات رئيـس الحـي، والآن وقـد بلغـت السـبعين، ربمـا سـأموت الآن

أو في الغد، وما زالت مكاني في المقبرة شاغراً، وإني لأعجب من قدرة الحياة على احتمال الموتى، وعجزها عن لمّ شمل الأحياء! ما تستطيع تمييزه بين هؤلاء المتساقطون، أنّ وجوههم مختلفة، ألوانهم مختلفة، أعمارهم، ألوان عيونهم، شعر رأسهم، وكأنهم ينتمون إلى عوالم مختلفة. ولكنهم أتفقوا على أمرٍ واحد: يدخلوا من الباب فيسقطوا في حفرة الغياب.

صارت أرضية الصالة رطبة لكثرة ما تبللت بالدموع، افترشتها لزوجة الموت المخاطية، تبادل الصمت والصراخ اللكمات، فخطرت للمكان خاطرة: ما الذي يحدث للوقت يجعله لا يقدم ولا يؤخر؟ أتراه حنث بميثاقه القديم؟ فكرة واحدة كانت تسيطر على كل من أطبق الوقت على عنقه، هي أنْ يحدث التسارع القديم الذي لا يعرف التمهل. سقى الغمام تلك الأيام التي كان ينضج فيها الوقت على عجل. ساعدت اللزوجة المخاطية فقط على تسريع التساقط. فما كان الداخل بمقدوره حتى أنْ يختار البقعة التي يسقط عليها، ولكنه كان ينزلق فحسب. وحتى أنّ سقوطه ما كان متمهلاً. سقوط الغرباء لا يؤلم ظهر المتفرج عليهم. انهيار الكتل الثلجية لا يؤرق بال كثبان الرمال. تحطم الكأس لا يشغل بال الشيخ، سيوجعه أكثر تدفق الماء من الإبريق. إجتثاث غابة لا يجرح خاطر ورقة، طالما كانت متشبثة بالغصن حتى آخر رمق. تدحرج حصاة من أعلى قمة جبال الهملايا، من المؤكد أنْ لا تعتبر حدثاً فريداً ذا بال. المجهود الذي تبذله الشمس في

الإسكيمو حتى تلحس البوظة الثلجية، ربما يثير سخرية جميع الفصول في الدائرة القطبية، ليس الشتاء وحده. آهةٌ يزفرها الموجوع لا تساوي شيئا في بحر الصراخ. ولكن سقوط شعرة واحدة من رأسك، تأخذك مباشرة للخطوة الأولى لكي تصير أصلعاً. لهذا كان سقوط صانع الطعام مدوياً.

انحشر جسده بين أجسادهم الهلامية، ذاب كقطعة ملح في كرش محيطٍ من المخاط. فشعروا بالتياعٍ مريع. مقرف. لم يشعر أحدهم حتى بإنزلاق صاحب الحانوت الشاغر في بالوعة اللزوجة الصفراء، انفتحت له وأبتلعته كما تبتلع الصدمة المفاجأة. وبالتالي لم يفتقد ظله أحد. ما مقدار القوة التي يحدثها ارتطام جسد ساقط فعلياً على الأرض؟ ألهذا لم يحدث سقوط المرأة الضيفة الدّويُّ اللازم لمغادرة تمد كفها للوداع؟

ما تساقطوا، ولكن انفرط عقدهم كمسبحةٍ انزلقت من بين أنامل شيخ ضرير. لم يلحظ اهتراء خيطها. تسللوا نحو رمالٍ متحركة، سبحوا نحو دوامة، كالقمر يدفن وجهه في الغمام، وهو بهذا يفقأ عيونه بيديه. أتخيلهم. أعني تلك الكائنات الشريرة غير المرئية. لا بد أنّ لها أفواهاً تعضّ بلا أسنان، تبدو في لزوجتها ومكرها، أشبه بأسراب من الأخطبوطات الغاضبة، تسبح بإتجاه أي عابر، أي عابر، تلتف حوله، تخنقه، لمجرد أنها شاهدته يسبح بقربها. تقتله أولاً ثم تتأكد إنْ كان عدواً أم صديق.

تلك الكائنات حسبما هو متوقع، بعد أنْ تحصد جميع الرؤوس، ستفني بعضها، إذ لا يمكنها احتمال حدة الجوع بعد أنْ نهشت لحوم ضحاياها البشريون. وأنت تبحث عن إجابة، تسربت السيدة ذات العينان المجنونتان سابقاً، تسرّب الضوء من المصباح المكسور للتو. عندما شوهدت لآخر مرة، كانت عيناها قد صارتا إلى كأسي بياض، فأختنقت الرؤية داخل محجريهما السكرانين. وبالتالي لم يسعف الوقت صاحب البيت لكي يشعر بالرعب، أو يبدي أي إحساس بالشفقة عليهما. فقد أفسح له الساقطون متسعاً من ..؟

* * *

يحكى أنّ صاحبة إندايـة أعدت مريستها لعمال المركب، وجلست تنتظرهم على الشاطئ، ولكن المركب جنحت، وعانوا في محاولة إنقاذها، فقلقت صاحبة الإندايـة خشية أنْ تبور مريستها ولا تجد من يشتريها، فاستغاثت بالشيخ إدريس ود الأرباب، ونذرت له بُرمة مريسة، إنْ خرج العمال ومركبهم سالمين. وبالفعل نجوا، فصار هذا النذر تقليداً راتباً في كل إندايـة، فصارت بُرمة الشيخ ود الأرباب سبيلاً للمساكين. كانت للشيخ سمعة طيبة، إذا كان معروفاً في الداخل والخارج. وكانت له مريسة شهيرة، حيث ذكر في كتاب الإندايـة، يفد بعض

الزبائـن إلى الإنايـة، وليـس كلهـم مـن القادريـن عـلى الـشراء، ففيهـم قدامـى السـكارى الذيـن شـاخوا فأصبحـوا بـلا عمـل ولا دخـل يدفعـون منـه. صاحبـة الإنايـة لا تقـذف بهـم بعيـداً، فهـي لا تـزال تذكـر صـولات شـبابهم، ولذلـك فهـي تقـدم لهـم الـشراب المجـاني مـن بُرمـة الشـيخ إدريـس ود الأربـاب. فهـي أول بُرمـة تمـلأ بالمريسـة بعـد اسـتوائها، وتوضـع في صحـن الإنايـة مجانـاً للشـاربين. ويأنـف منهـا كبـار السـكرجية والفتيـان، وتخرجهـا صاحبـة الإنايـة يوميـاً، وفـاءً لنـذرٍ دائـم، وتـبرّكاً بالشـيخ إدريـس ود الأربـاب، وأمـلاً في أنْ يجلـب لهـا رضـاؤه الزبائـن.

اسـتيقظ مـن النـوم، كان وجهـه كئيبـاً وكأنمـا قـام غسـله بعـرقٍ مـضروب صنعـه ابـن حـرام. لـن ترغـب في الإقـتراب منـه. وكانـت رائحـة فمـه أشـبه ببرميـل مريسـة نفـق في داخلـه كلـبٌ حيـوان. وهـو إذا نمـا إلى علمكـم، مدمـنٌ شرِهٌ إذا مـا شـاهد شـتلة نخيـل عـلى الجـدول، صرّ وجهـه مـن لسـعة خمرهـا. يمكنـه أنْ يتنـازل عـن حريتـه مقابـل كأس، فيطمـع في شرابـك وكأنـه غـرس بأظافـره النخلـة التـي أثمـرت التمـر الـذي قُطِّـر منـه.

طـوال غيابـه الملغّـز، وضـح أنـه لا مجـالٌ لتزييـف المتاهـات، ولا تفكيـك الأُحجيـة. بـل ظلـت الفكـرة تشـاغبه بمكـر، فيقتنـع أنّ هذا التشـابك لا تفلـح في حـلّ أسراره إلا أصابـع صيـاد. حسـناً. فليلِـج داخـل هـذه المتاهـة، ربمـا يريحـه أنْ يتذكـر سـؤاله التأريخـي

للأعمى: كيف وصلت بالأمس وأنت أعمى وسكران؟

لقد فعَّلت كالعادة وضعية الطيار الآلي!

يعصر ذاكرته ليتذكر شيئاً ينير عتمته.

يهذي.

لا أخشى الظلام، ولكني كلما أطفئت السراج، سرقت مني زوجتي طفلا جديد.

ولماذا لا تنام وحدك؟

فراشي يضيق دون أنفاسها.

لست مدمناً. وستعجب إنْ عرفت أنّ جسدي لا يطيقها.

إذن لماذا تعاقرها كل ليلة من الليل؟

روحي تحبها، فإنْ رضِيَتْ روحي طاب جسدي.

يرفع الكأس، يشمه، فيعطس، وحينها يتأكد من جودة الخمر. يناجي نفسه: أشرب ولا تلق بالاً لهؤلاء النباتيين الذين يدخنون النبتة الشريرة في الخرابات والأزقة كالمتشردين.

يسكنه خدر الخندريس، يعجز عن التوقف، وهو بلا شكّ لا يريد أنْ يفعل هذا. تجتاحه الرعشة اللذيذة، تغدرُ بأوصاله، على الرغم من عدم قدرته على فهم ما يجري. لا يوجد الحافز، فالإيثانول مسيطرٌ كما نرى. ليس هناك مبرراً

لهـذا الكارمـا إذن. لا تشـغل نفسـك بقانـون الثـواب أو العقـاب. بإمكانـك اعتبـار أنّ الكارمـا مناوشـة أخلاقيـة لا داع لتشـغل نفسـك بهـا. بوسـعه أيضـاً أنْ يتخيـل أنّ دمـوع النسـاء والأطفـال، تتحـوّل تلقائيـاً إلى أنهـارٍ مـن النبيـذ، فهـي الأصـدق دائمـاً. والمـرأة هـي كرمـة الله في الأرض، فـما عليهـا إلا أنْ تبـكي لتسـكر قلـوب الرجـال.

كل ذكرياتـه مـع الخمـر جيـدة إلى حـد مـا، ولكـن أسـوأ مـا حـدث لـه، شرب ذات يـوم مـع صديقـة مـن غـزلان يامبيـو، كان هـو نموذجـاً لرجـلِ ال جـاك دانيـل، وكان قلبهـا أطيـب مـن الشـمبانيا. يتذكـر ذلـك الأمـر بإنكسـار المنتـشي، لأنـه عندمـا أفـاق، أخـبره مذيـع الأخبـار، أنّ صديقتـه قـد صـارت مـن بلـدٍ لا يحـلّ لـه دخولهـا إلا بوثيقـة سـفر.

في أعماقـه ظـلّ يحلـم بـأنْ يعمـل سـاقياً في حانـةٍ عتيقـة، حيـث يقـف وراء طاولـة البـار المسـتطيلة، وهـو يحمـل ممسـحة قطنيـة بيضـاء، ينظـف الكأسـات المعلقـة، يراقـب الزبائـن، يتسـمّع إلى قهقهاتهـم، وهـذا يشـعره بالرضـا. فهـو بذلـك قـد أدى دوراً عظيـماً في جلـب السـعادة إلى قلوبهـم. سـاقٍ في حانـات ربمـا لم يسـمع عنهـا. مثـلاً حانـة سـدوري الأسـطورية في ملحمـة الملـك الجبـار جلجامـش، كـما حـدث قديمـاً في البـلاد السـومرية. لهـذا بإمكانـه أنْ يسـمع الملـك جلجامـش يقـول: وهـل يفيـض النهـر دومـاً؟ وهـل دائمـاً يتحـوّل اليعسـوب إلى يرقـة؟ عسـاه أنْ يشـاهد كلّ أولئـك المحاربـين والمظلومـين الهاربـين مـن طغيـان جلجامـش، يأتـون إليـه، يطبطـب عليهـم، ويسـتمع إلى شـكوى رجـل تعيـس

يسـأل:

مـاذا عسـاي أنْ أفعـل وإلى أيـن أتجـه؟ إنّ المـوت قـد تمكـن مـن لبـي وجوارحـي. أجـل في مضجعـي يقيـم المـوت، وحيثـما أضـع قدمـيّ يربـض المـوت. ينتصـب واقفـاً يراقـب الضحايـا المسـاكين وهـم يتحلّقـون ليشـفطوا الجعـة اللذيـذة عـبر أعـواد مـن القصـب المجـوّف، يسـتمع إلى شـتائمهم، ويغـرق في المـرح المتوحـش.

هـذا بالتأكيـد حلمـه، في غـرارة نفسـه لا يريـد أكـثر من ذلـك، حانة عتيقـة في الأيـام البـاردة تمتلـئ بغانيـات المواخـير، تنـزل عليهـن بركـةً مفاجئـة، حـين يصبحـن مصـدر الـرزق الوحيـد، بجلبهـن للزبائـن الملاعـين المباركـين، لهـذا ليـس هنـاك مشـكلة إنْ صـبّ لهـن بعـض الكـؤوس المجانيـة. يريدهـا حانـة عصريـة، ليسـت في إحـدى الموانـئ، وبالتـالي لا يعرفهـا أولئـك البحـارة الأجـلاف، الذيـن يسـكبون ملـح أجسـادهم في المـكان، فتطـرد رائحتهـم الملائكـة منـه.

ولأنـه السـاقي الوحيـد في حانتـه، لـذا فالزبائـن يسـتمعون إلى الموسـيقى التـي تروقـه هـو، ينتظـروا أنْ يتغـير مزاجـه حتـى يجـف الـشراب في حافـة الـكأس، فيديـر لهـم موسـيقى راقصـة ماجنـة. في هـذا المـكان وحـده تنـال حريتـك كاملـة، بإمكانـك أنْ تخلـع ربطـة

عنقك التي تخنقك، أنْ تجلس طوال الليل تشتم زوجتك، تبدّلها بزوجة الرجل الذي يجلس إلى نفس طاولتك، وتضرب كفّاً بكف، حين تسمعه وهو يشتمها، فتعمد إلى ضربه. لن تريد حانة يقصدها الطلاب، فهم مزعجون كذبة، لن يتورّعوا عن شتمك طوال الليل بعد أنْ يشغلوا الطاولات كلها مقابل كأس براندي تافه أو زجاجة جعة. من الأفضل أنْ تكون حانة يابانية، فهم أشخاصٌ لطيفون، فمنذ أنْ فاقوا من صدمة هيروشيما، انشغلوا فقط بالعمل والحياة. سيكون السّاكي هو طلبهم المفضل، فلن تشغل نفسك بفرز أنواع الشراب الأخرى، ويستحسن ألا تكون من ضمن القائمة.

قد تكون محظوظاً فتعمل في حانة باريسية راقية، ترتدي بنطالاً وصدّارة سوداء، ويبرق قميصك الأبيض النظيف. ومن الأعلى تتلألأ كريستالة ضخمة، تعكس ضوءها على كؤوس الكريستال اللامعة، فتخطف البصر. في هذا المكان لن تضطرّ لكي تجمع باقي شراب الزبائن لتأخذه إلى الأصدقاء، ولن تكون تام زين التي كانت تعيل أسرتها من بواقي مريسة الحثالة. فهناك يتركوا الزجاجات نصف ممتلئة، فهم مشغولون بالإدعاءات الزائفة والبريستيج المظهري. يتحدثوا عن الطهاة، قطع اللحم المشوي، عن التذاكر التي حصلوا عليها لحضور مباريات التنس، عن الحفلات الراقصة، حين تراقص أنوار برج إيفل عتمة الديجور، في الليالي الشتوية. وفي مكانٍ مماثل، لن تسمع الشتائم السوقية، فلديهم أسلوبهم الخاص في توجيه

الإهانـة. مثـلاً أنْ يكـون حسـابه البنـكي أكـثر تخمـةً مـما تملـك، وربمـا يوجـه إليـك إهانـة عـبر خاتـم المـاس الـذي يتـلألأ عـلى بنـصُر زوجتـه. سـتفتقد رائحـة البـول، اللـون الأصفـر البغيـض، لفافـات التمبـاك عـلى مقعـد التواليـت، وسـبابك الغاضـب حـين تكتشـف أنّ أحدهـم لم يسـحب الشـفّاط بعـد قضـاء حاجتـه.

يـا لرائحـة البـول! لـن تكتسـب حانـة شـعبية سـمعةً رائجـة، لـو لم يتبـوّل في مرحاضهـا مئـة ألـف سـكران!

وجـد البيـت عـلى حالـه قبـل أنْ يعـود مـن رحلـة قيامتـه الأخـيرة. لم يتغـيّر فيـه شيء يسـتحق أنْ يذكـر. الصالـون مـازال منتصبـاً كمقـبرة عملاقـة مـن طـين الجالـوص، أشـجار البـان تتراقـص بفعـل نسـمة الهـواء، الطيـور التـي تشـاركهم السـكنى، وتقـضي حاجاتهـا عـلى رأسـه وفراشـه حـين ينـام في الفنـاء. كل شيء. بحـث عـن رأسـه فـما وجـده، اسـتقرت مكانـه كتلـة هائلـة مـن الألم والصـداع. حـاول أن يتذكّـر، ولم يعلـم أنّ ذاكـرة السـكران إنتقائيـة ماكـرة، فهـي تتذكـر أو تنـسى مـا تريـده. أمـا قلبـه، فمتقلـب الأطـوار لا يعـرف مـا يصلحـه أو يـضره. وللأمانـة فهـو شـخصٌ لازعٌ سـمج لا يستسـيغه المـرء، مثـل كأس التكيـلا الأول يحتـاج إلى القليـل مـن الملـح والليمـون.

طـوال الليـل ظـلّ يـراوده حلـماً واحـداً: عـثر أحـد الـكلاب الضالـة

على برميلٍ من المريسة، فولغ فيه وسكر لطْ كما يقولون، فكان يلاقي السابلة، فيهز إليهم ذيله، فيشعرهم بالأمان، وعندما يقتربوا منه باسمين، كان يقفز إليهم، فيعضهم ويمزق ملابسهم. لهذا عليه، مستقبلاً، أنْ لا يثق في كلبٍ سكران مهما أبدا من حسن النوايا.

تغافله تلك الحكاية المختلقة. ذهب أحد الفسقة إلى أحد الأديرة لكي يدير حواراً مع ربّه. وفي مثل هذه الأحوال يكون الحوار مع من ينوب عنه كما يعلم الجميع.

في صحن الدّير أوقد الفاسق شمعة إذ لم تسمح ظروفه باحضار ذبيحة. وابتدر صلاته قائلاً فور جلوسه في كرسي الاعتراف:

ماذا أصنع وعقلي مؤمنٌ باللاء والخمّار يسقيني نعم؟

يا إلهي، كأسي مترعٌ بالاعتذارات، لهذا حين تغرقه الثُمالة، يظنّ قلبي أنه إليك أقرب. يغمغم الراهب مختنقاً بالإنابة عن مرؤوسه القدسي، فيتجاهل الفاسق غضبه: إنّ روحي مسكينة، ليست شريرةً كما تظن، وحين قالوا أنّ في الخمر نار، لم يعلموا أنّ في قلبي نارٌ أشدّ، وكما تعلم يا سيدي، النار تأكل بعضها حين لا تجد ما تأكله! قال له الكاهن الزعلان: "لا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة بل امتلئوا بالروح".

وفي الحانة التي تقع على مقربة، جلس الفاسق يتأمل. وفي آخر الليل، نامت روحه سكرانة!

حاول أنْ يفتح عينيه، لسعته أشعة الشمس، فشعر بالدوار.

سمع صوت سيدة لم يعلم أنها والدته: يا ابني قم الله يهديك.

لم يعلم أيضاً أنّ الخمر غادرة كشرطي نظام عام.

ياسين سليمان

حبيب نورة

النرويج أوسلو أبريل ٢٠٢٠

صدر له:

الحب من طرفٍ ثالث {رواية}

منغولي {رواية}

نون النزوة {رواية}

ابن اليهوديّة {رواية} بنات الداون تاون {مجموعة قصصية}

محمود عبد العزيز مع سبق الإصرار والترصّد {توثيقي}

تحت الطبع:

ماتساللا {رواية}

مقامات نُعال ابن نخلة {رواية}

الموتُ أسفل جمهورية أعلى النفق {رواية}

مجموعتان قصصيتان: المحقّق وحكاوي غير مسؤولة.

للمراسلة

Yaseensuliman1@gmail.com